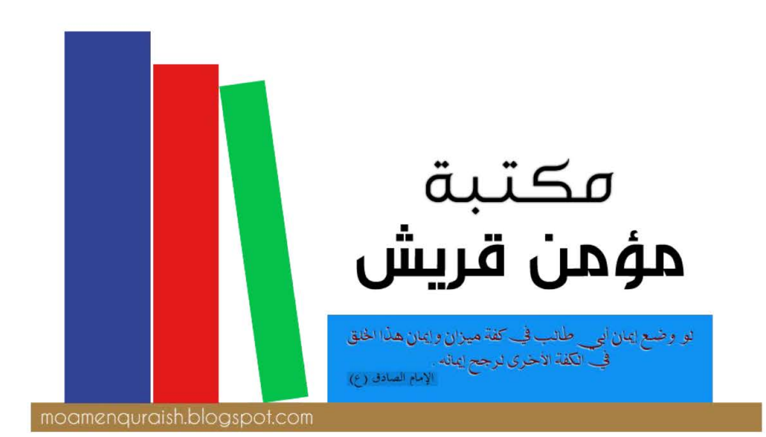
د. أفراح لطفي عبدالله

الفلسفة: فسيولوجيا العقل وعلم تشريح الأفكار

الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة



الفارابي


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

الفلسفة:

فسيولوجيا العقل وعلم تشريح الأفكار

الفلسفة:

فسيولوجيا العقل وعلم تشريح الأفكار

د. أفراح لطفي عبدالله

أستاذ الفلسفة في كلية الآداب ـ جامعة بغداد

دار الفارابي

الكتاب: الفلسفة: فسيولوجيا العقل وعلم تشريح الأفكار
المؤلف: د. أفراح لطفي عبدالله
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2012
ISBN: 978-9953-71-780-7

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

المقدمة

إن المتابع للأدبيات الفلسفية يمكنه استنتاج إشكالية لا يجدها مع أغلب حقول المعرفة الأخرى وهي: إشكالية التعريف... حيث لن يتمكن الفلاسفة من الاتفاق على تعريف واحد للفلسفة. وقد يعود هذا الأمر إلى نظرة أحدهم إلى تعريف الآخر للفلسفة نظرة نقد تقتضي التقويض إن لم نقل نظرة إهمال تستبطن الاستبدال وليس التطوير؛ وهذا الكلام ربما يكون قد خطّ طريقاً وعالماً للفلسفة خاصاً بها. فهو قد أسند إليها من جهة، وظيفة تقتضي التفسير وليس العلم بحيث أصبح بديهياً أن لا يعاملها دارسو الفلسفة وباحثوها كعلم وإنما كحقل معرفي يتميز فكره بحرية الاختلاف ونسيان الزمن؛ فقد يصبح القديم جديداً والعكس صحيح، وهو من جهة أخرى، قد جعل لها عالماً مختلفاً عن عوالم المعرفة الأخرى. عالم له خصائصه الخاصة متمثلة بتنوع وجهات النظر وتعدد الرؤى واختلاف الآراء. ومع هكذا عالم يمكن القول: إنّ الباحثين قد تجاوزوا النظر إلى مسألة التعريف السابقة كإشكالية وهو ما يبرر استمرار الفلسفة حتى

الآن، رغم النقودات على طروحاتها التي تعرضت لها ولاسيما مع تطور العلم وكشوفاته الجديدة.

والأمر ليس دفاعاً عن الفلسفة بقدر ما هو انكشاف لحقيقة واقعها الفكري المختلف عن غيره، فالاعتراف بتوصيف هذا العالم بصفة الاختلاف يجعلنا نعي أهمية أن تكون لهذا الواقع قوانينه ومميزاته وسلوكياته الخاصة التي لا يمكن نفيها، بحيث تغدو ما يعتبرها البعض غرائب وليست ذات جدوى هي المادة الخام لهذا العالم، ويصبح من غير الممكن خدش صرامة الفلسفة إذا ما أجبنا عن أسئلة تعتبرها حقولاً معرفية أخرى أساسية لها؛ أقول: إذا أجبنا عنها بحكم أعراف وقوانين وخصائص عالم الفلسفة المختلف، فمثلاً، سؤال من نوع: هل أنّ مفردة التطور تفيد في الفلسفة؟ لا يجعلنا نتردد في الجواب بالنفي والاعتراف بأنه لو كانت هذه المفردة تفيد لانتفت الفلسفة ولأصبحت شيئاً آخر. وأيضاً السؤال هل من الضروري أن تكون الفلسفة علماً بالمعنى الطبيعي؟ يجعلنا لا نتردد في الإجابة بثقة بالنفي أيضاً، لأنه لا يتناسب وخصائص عالم الفلسفة. فموضوع الفلسفة متنوع ومختلف باختلاف الفلاسفة، والتنوع والاختلاف لا يمكن تحجيمهما بقالب منهجي دقيق ومحكم كما يحدث مع العلم.

هذا فضلاً عن خاصية موضوع الفلسفة الأساسية التي تستدعي أن يكون هذا الموضوع في جوهره نقداً وتحليلاً، ما

يعني المرونة الفكرية. والمرونة الفكرية أفضل تبرير لتنوع الفكر الفلسفي واختلافه وبالتالي تعدد التعريفات، وهذه جميعها مسائل نستطيع القول أنها تشكل عالماً لم ينشد التطور بقدر ما ينشد تنشيط النقد، وهو دور ريادي للفلسفة من أجل التأسيس المعرفي للفكر عموماً.

ولم يغب هذا عن بال الكثير من الفلاسفة. فالتمييز بين العلم والفلسفة أخذ اهتماماً واسعاً من الفلاسفة منذ كانط إلى التمييز المميّز بينهما، الذي قدمه فيلسوف العلم الكبير كارل بوبر.

إذن، للفلسفة عالم خاص له خصائص وصفات وقوانين تخصه هو وهو فقط. وهو وإن لم يعجب البعض فإنه لا يمكن إنكاره، خصوصاً وأن الفلسفة لم تكن يوماً بضاعة مهملة، ولم يكن الفلاسفة يوماً دخلاء على الفكر؛ فالجميع يعرف دور الفلسفة في صنع العلم والحضارات، والجميع يعرف أهمية أن يتسلح المرء بالفلسفة لتمتين بحثه لما يمكن أن توفره من مشاكسة تستفز الواقع لتخلق الجديد، بالأحرى، فإن الفلسفة وبفعل أهمية ما قدمته قد ألزمت التاريخ أن ينصف جرأة الفلاسفة في إبداع الأسئلة وشجاعتهم في طرح الأجوبة وقدرتهم على نحت المفاهيم؛ وهذا الإنصاف يتضح بالتفاعل المثمر بين الفلسفة والعلوم الأخرى.

ومن جهتي، أرجو أن لا أكون مبالغة إذا طالبت التاريخ

بإنصاف الفلاسفة أيضاً، على مسألتين مهمتين وهما: إمكانيتهم في تشريح الأفكار وإبداعهم في فسلجة العقل، كوني وبفضل هوايتي ومهنتي في قراءة الفلسفة قد وجدت في هاتين الوظيفتين أفضل تعريف للفلسفة، فهو إذن تعريف للفلسفة جديد يخص تأويلي(*) ورؤيتي لطروحات الفلاسفة.

وقد وجدت في هذا التعريف حلماً قد لا تسعى إليه الفلسفة بسبب تفهمها لخصائص عالمها الذي شكلته... والحلم هذا يكمن في إنصاف العمل الفلسفي وريادته في قدح الأفكار وتأشير الموضوعات... فمتى كان العقل موضوعاً للبحث قبل أن تذكّر به الفلسفة؟ ومتى كانت للأفكار فائدة في التوصيف النظري قبل طروحات الفلسفة؟ ومتى ومتى؟ والفلسفة في هذين المؤشرين: العقل والأفكار ـ وهما موضوع بحثنا ـ كانت مقدامة بشكل لم يلحظه الكثيرون... بحيث يمكن أن نلحظ معهما أن الفلسفة علم ولكنها علم من نوع خاص... علم لا يخرج عن خصائص العالم الذي ولد فيه، أي أنه علم لم يتوحد حول نتيجة نهائية، ولكنه يسير على الدرب الإجرائي للعلم في تفحص موضوعاته وخصوصاً العقل.

(*) إن أغلب النصوص الفلسفية إن لم أقل جميعها قابلة للتوصيف بطرق تأويلية عدة، فمن يتمعن في هذه النصوص يستطيع أن يكون صورته التأويلية لتوصيفها.

بداية نقول: إن الفلسفة مؤسسة على العقل سواء كان مصدراً للمعرفة أو أداة للمعرفة أو محللاً للمعرفة أو خالقاً للعالم والإنسان صاحب المعرفة أو طارحاً للمشكلات والأسئلة الفلسفية أو مجيباً ومقدماً للحلول أو، أو... إلخ فالعقل هو محور البحث الفلسفي، ولما انتبه إليه الفلاسفة أصبح عملهم ينصب في توصيف أدق تفصيلاته، ورأيت في هذا التوصيف ما يشبه الاستقراء الطبي لعضو من الأعضاء.

لقد اعتبر الفلاسفة العقل عضواً أساسياً ومحورياً عند الإنسان، وطريقة بحثهم له كانت أشبه ببحث فسيولوجيا هذا العضو، فالعقل معهم بمثابة بنية لها أجزاؤها ولكل جزء وظيفته وبجمع الأجزاء ووظائفها تتبلور قيمة العقل وتعلن في النهاية عن اكتمال ذلك العضو الإنساني.

والفلسفة إذا أرادت أن تكون علماً فإنها ستجد في هذا الموضوع باباً واسعاً ومرحباً، ولكنه ـ كما قلنا سابقاً ـ علم من نوع جديد يلتزم بقوانين عالم الفلسفة التي أهمها الاختلاف، ولكنه من ناحية أخرى يلتزم بالاستقراء الإجرائي في جسم الإنسان بحيث يبدو الفلاسفة وكأنهم علماء طب في العقل... وهم بهذا الجهد المضني كانوا قد نبهوا علماء النفس والأعصاب إلى تلك المنطقة الغامضة وكانوا كالمعتاد على أهبة المساعدة من دون حساب.

لم ينفرد الفلاسفة بهذا العمل المميز وحسب، بل كانت

لهم الريادة في القدرة الساحرة على تشريح الأفكار. فنحتهم للمفاهيم التي ترتكز عليها فلسفاتهم لم يكن عملاً اعتباطياً، بل كان جهداً ألقى الفلاسفة على عاتقهم من خلاله مسؤولية تفسير كل شيء وحل كل إشكال؛ وطريقة تفصيلهم لهذا كانت أشبه بالتشريح الطبي. فالمفهوم هو الفكرة = المرتكز للمذهب ككل، ومن ثم تتبع إحداثيات ـ كما أسماها دولوز ـ هذا المفهوم في خريطة تبيّن شبكة تفرع المفاهيم من المفهوم المركز لتبيان بقية المفاهيم المرتبطة به، وهي عملية قريبة إلى تشريح عضو ما. فالفكرة هي عضو أيضاً، وتشريحها يستدعي مختصاً لتبيان وظائفها وهذا المختص لم يكن إلا الفيلسوف.

قد تكون هذه الطروحات غامضة بعض الشيء، لكن تأنياً في قراءة المحتويات ككل سيبدد كل تعقيد وهو ما يلزمنا بأن ندعوكم الآن للدخول إلى ثنايا تفصيلات هذا البحث.

خريطة العنوان

يشير عنوان الكتاب (الفلسفة: فسيولوجيا العقل وعلم تشريح الأفكار) إلى موضوعين أساسيين: الأول، يخص معنى العبارة ككل وهو تقديم تعريف جديد للفلسفة مهمتنا التدليل عليه في هذا البحث. والثاني، يمس خاصية جوهرية لطالما أنكرت على الفلسفة وهي أنها (علم).

فما علمتنا إياه الأدبيات حول الفلسفة هو أنها ـ أي الفلسفة ـ لا يمكن أن تكون علماً، كونهما ـ العلم والفلسفة ـ يختلفان بالغاية والمنهج والانطلاقة... هذا الكلام صحيح في جميع تعريفات العلم، لكن فحصاً دقيقاً لهذه التعريفات يجعلنا نقع على شطر قريب إلى الفلسفة والذي يرجع اكتشافه إلى فلسفة العلم وهو الشطر النظري. ففضلاً عن التلاقي بين الفلسفة والعلم من خلال تعريف العلم على أنه " مفهوم غامض فهو في آنٍ موقف إزاء الطبيعة ومجموعة معلومات

وطريقة تفسير وعمل"[1]. ففضلاً عن هذا نجد نقطة التلاقي هذه تتجسد بشكل كبير بتذكر أهمية الفلسفة للعلم. ففرانك، وفي بحثه عن الحلقة المفقودة بين الفلسفة والعلم، أكد أهمية أن لا يقتصر فهمنا على العلوم نفسها بل يجب "الإيمان بوجود مبادىء فلسفية... يمكن أن نشتق منها البيانات العلمية سواء منها الاجتماعية أو الطبيعية"[2]. ولكن التعويل على الجانب النظري في تعريفات العلم كان قد جسد نقطة التلاقي هذه بشكل كبير، حيث نلمح مزايا فلسفية في صلب نظرية العلم. فعندما يقول كونانت: إن "العلم عبارة عن سلسلة من تصورات ذهنية ومشروعات تصورية مترابطة متواصلة هي جميعاً نتائج لحدثين هما الملاحظة والتجريب"[3]، فإنه يكون قد عوّل على الجانب النظري بشكل كبير؛ كون التصور الذهني يعني الفكرة أو المعنى المجرد، أما المشروع التصوري فيوقظ الذهن لإيجاد نسق كالفرض أو النظرية.

---

(1) كورغانوف، فلاديمير، البحث العلمي، ت: يوسف أبو فاضل ومبشال ابو فاضل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 1983، ص 53.

(2) فرانك، فيليب، فلسفة العلم، ت:علي علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1983، ص8.

(3) كونانت، جيمس، مواقف حاسمة في تاريخ العلم، ت:أحمد زكي، دار المعارف بمصر، ص 50-51.

ونحن نعرف جيداً أن التجريد والأنساق الذهنية والفروض الخيالية هي من عمل الفلسفة، ولهذا السبب يمكن أن "يتفق الباحثون جميعاً على أن العلم بحث نظري بمعنى أنه جهد مبذول للمعرفة والفهم الذي يحيط بظواهر الطبيعة على أن تشمل الطبيعة كلاً من الإنسان والعالم المحيط به"[4]. فأن يكون العلم بحثاً نظرياً قد يضفي صفة العلمية على الفلسفة كونه يذكرنا بوجهها النظري وإن كانت تتقاطع مع العلم عند شطره التجريبي وهذا يمكن تبينه وفقاً للاستنتاج التالي:

إذا خلصنا إلى تعريف للعلم يقول: إن "كل علم إنما يبحث في مجموعة خاصة من المعارف وفي معلومات جزئية وقوانين معينة تنطبق على قسم معين من أقسام الكون وأجزائه"[5]، ألا نجد وفقاً للجزء الأول من هذا التعريف أن للفلسفة مجالاً من المعارف كبقية العلوم؟ ألا نستطيع أن نقول: إن هذا المجال يتجسد في العقل؟ لاسيما وأن العقل هو المنطلق لرؤية ظواهر العالم أو مركز تشكلها وذلك بفعل أجزائه ومكوناته ووظائفها، بل والأكثر من هذا، ألا يسعنا

---

(4) قنصوة، صلاح، فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص 38.

(5) بيصار، محمد عبد الرحمن، الفلسفة اليونانية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1981 ، ص 25.

وفق كون العقل هو المرتكز والمنطلق أن نشهد عملاً فسلجياً له من قبل الفلاسفة. وهذا العمل واضح في أغلب أعمال الفلاسفة حول تفسيرهم للمعرفة، العمل الذي يضطرهم إلى الاشتغال على العقل حيث يبدو العقل وكأنه عضو يتفرع إلى أجزاء أو أعضاء أخرى ولكل عضو وظيفة خاصة به، وهي صورة صريحة لعمل فسلجي للعقل؛ فإذا افترضنا إذن، أن مجال المعارف الذي تختص به الفلسفة هو العقل وأن طريقة بحثها في هذا المجال هي فسلجية، عندئذ يمكننا أن نعد الفلسفة هي فسيولوجيا العقل؛ لكن يبقى السؤال: كيف تمارس الفلسفة بحثها هذا علمياً؟ أي كيف يُدرس العقل فسيولوجياً؟ وهو ما سنبينه خلال البحث.

تعني "كلمة فسيولوجيا (physiology) دراسة الوظائف الآلية والمادية وكيمياء الحياة في الكائنات الحية"[6]؛ أو هي علم وظائف الأعضاء(*). وتعزى بداية الفسيولوجيا في الإغريق القديمة إلى التفكير النقدي لأرسطو وتأكيده العلاقة بين البنية والوظيفة(**). ولا شك أن البنية هنا تمثل العضو وتشخيص وظيفته وتفاصيلها، وشرحها وتشريحها هو دراستها

---

(6) ويكيبيديا.

(*) البعلبكي، منير، المورد القريب، ط1، 2005 ، ص286.

(**) ويكيبيديا: استطاع أرسطو ان يجد هذه العلاقة في تشريحه لأعضاء الحيوانات وتحديد وظائفها. راجع كتابه طباع الحيوان.

فسلجياً. وإذا كان العقل مجال الفلسفة يبحث بتفاصيل ومكونات وأجزاء تشكل بنية، فإنه يمكن أن يكون عضواً. ولكن أن يكون عضواً سيجعل البعض يعلن انه لابد أن يكون مجسداً، لكننا نقول: إنه مجسد فعلاً، لكن ليس التجسيد المعروف بل التجسيد الذي يتحقق ويلمس من خلال الذات ـ كما يقول بوبر ـ ووفقاً لهذا يمكن للعقل أن يشكل مجالاً توصف دراسته بالعلمية.

من جهة أخرى، إذا كان العقل هو مجال اهتمام الفلسفة منذ قدمها فإن الصور، التي قدمها الفلاسفة لتشريح العقل ورسم أعضائه ومكوناته وتحديد وظائفها، هي صور فسيولوجية... ولو وافقنا على الكلام السابق فإنه يمكن للفلسفة أن تحوز على لفظة علمية، فالفلسفة تملك الأصالة في بحثها هذا، الذي تجاهله العلماء وحتى بعد الأبحاث الفسلجية للدماغ أخيراً، بقيت هي الوحيدة التي تمدنا بالبحث الفسلجي للعقل.

فلطالما رُسم في بال الفلسفة إذن، أن العقل عضو وإلاّ لما استطاعت أن تشرّحه وتطرح وظائفه فسلجياً بهذه الصور الرائعة المتعددة بتعدد مذاهبها، ولما استطاعت أن تظهر قوانينه ومبادئه وأجزاءه ولكن بطريقة ذاتية متنوعة بتنوع انطلاقاتها؟ عند هذه النقطة تقف الفلسفة لتفترق عن العلم، فهي لا تستوفي الشطر الثاني من تعريفات العلم الكامن في

توحيد الحكم موضوعياً حول القوانين والعمليات بصورة عملية وعلمية.

إن كبرياء الفلسفة لايجعلها تلتفت للانضواء تحت إطار موحد، الأمر الذي يبقي تفسيراتها ذاتية مما يمهد لأن يرد الاحتجاج الأزلي على عمل الفلسفة القائل: إنها ما دامت لا تستطيع أن تقدم إجابة موحدة فإنها لا يمكن أن تكون علماً. لكن يمكن تبسيط هذا الاحتجاج كون العقل ليس جزءاً افتراضياً بل هو حقيقي في الإنسان. وإن الفلاسفة بذكائهم الفطري قد فطنوا إليه وحاولوا تحليله بطرق تشريحية تشبه طريقة تشريح الأعضاء الجسدية... ولكن كون العقل عالماً يتجاوز الملموس والمنظور المادي، وهو من الغموض حتى مع الكشوفات حول تشكيله من الدماغ جعل طريقة تناوله وتشريحه من قبل الفلاسفة تختلف عن طريقة تشريح العلماء للأعضاء الأخرى. لأنه وبسبب ترفعه عن المادة جعله قابلاً للرؤية بأوجه متعددة ومختلفة، وجعل الخيال يلعب دوراً في تصوره وصنعِ صورٍ تحاول الاقتراب إلى حقيقته ولاسيما في زمن لم تأخذ الكشوفات حول الدماغ بعداً واضحاً. لكن من الضروري الإشارة إلى أن العقل لم يجد اهتماماً بكونه عضواً قابلاً للتشريح سوى من الفلاسفة. هذا، من دون أن يكون حديثهم عنه اعتباطياً أو ضرباً من الخيال. والدليل أن الفلاسفة ـ وبجهدهم هذا ـ قد نبهوا العلماء إلى وضعه تحت

المجهر أخيراً من خلال الدماغ. وهكذا، لا نكون ضاربين في الخيال إذا ما قلنا: إن الفلاسفة يمكن توصيفهم كعلماء اختصاص بعضو الإنسان المتسامي (العقل) وفق مقاييس مناخهم الفكري، كونهم قدموا توضيحات، رؤاها مهمة لبناء علم الإنسان والعالم. وعليه من المبالغ فيه القول إن الفلسفة أدخلتنا إلى أرض" لم يدخل العلم إليها وربما لن يدخل أبداً. ويصح القول إن الإنسان محتاج لأن يرسم حدود هذه الأرض ويدخلها حتى بدون يقين العلم"[7]. يمكن قول ذلك كون الفلاسفة يطرحون أنفسهم كعلماء، فهم قد اخترقوا عالم العقل كونهم علماء من دون حاجة إلى يقينيات العلم وإن نبهوا ـ بغير قصد ـ العلماء بما قدموه من صور تشريحية وفسلجية وأسئلة ومشكلات.

أما في مجال الأفكار فيمكن ـ إذا صح القول ـ أن تكون كلمة تشريح (anatomy) العلمية[*] ملائمة لعمل الفلاسفة في طرح الأفكار كونه طرحاً يتتبع أسلوباً تشريحياً في توصيف الأفكار. فإذا كان التشريح الطبي يتناول دراسة

---

(7) الألوسي، حسام، حول العقل والعقلانية العربية، دار القدس، عمان، الاردن، ط1، 2005 ، ص 38.

(*) أحد فروع علم الاحياء الذي يتناول دراسة بنية وتنظيم الكائنات الحية وتركيب اعضائها المتنوعة. راجع التشريح، ويكبيديا - الموسوعة الحرة.

تفصيلية لمختلف أنسجة الأعضاء وتمفصلاتها وكذلك معرفة الشكل الدقيق والموضع والعلاقات بين البنى المختلفة للجسم البشري(*)، فإن الفلسفة في هذه الأرض ـ أرض الأفكار ـ قد فاقت كل المجالات العلمية وغير العلمية في قدرتها الواسعة على صنع المفاهيم والأفكار وتشريحها بطريقة تفصيلية تكشف عن نسيج العلاقات المتمفصلة الكامنة في بنية فكرة ما، كتمفصلات الكوجيتو المحبكة وتناسق المونادا المتناغم وهندسة نظرية المثل الدقيقة، هذا فضلاً عن موضوعات فروع الفلسفة الأخرى، حيث لم تطرح هذه الأفكار كمسميات فقط، بل طرحت بطريقة تشريحية تقصت أدق التفاصيل بصيغة منطقية محكمة. فالفلاسفة والفلاسفة وحدهم هم من استطاعوا ممارسة التشريح ـ تشريح الأفكار وإن لم يحددوا هذا الفعل بمسمى معين، وهذا نجده حتى بعد إعلان العلم عن دور الدماغ في تشكيل العقل. فالفلسفة المعاصرة لم تنسَ وظيفتها العلمية في تشريح الأفكار كما في حدس برغسون وأداة البراغماتيين ووجود وعدم سارتر... إلخ هذا، فضلاً عن تقديم صور تشريحية للعقل وقدرة عالية على تفسير وظائفه.

وعليه، فإذا كانت الفلسفة بطرحها الأفكار إنما تشرّحها

(*) راجع التشريح، ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرة.

وبطرحها العقل ليس كتحصيل المعرفة ومصدرها، بل كعضو يمكن رؤية أجزائه فسلجياً، عندئذٍ لابدّ أن نقول: إن الفلسفة علم... لكن أي علم؟ أقول: علم تشريح العقل والأفكار المجال المجاوز والحقل المترفع عن المادة؛ الأمر الذي يجعل العلم هنا ـ من نوع خاص ـ علماً بعضو أساسي في الإنسان الذي تجاهله العلم لخاصيته غير المادية لحقب طويلة... ولم نقل: إن الفلسفة قدمت كشفاً علمياً حول العقل، لكنها استوعبت الحيرة العلمية مبكراً إزاء تفسير الوعي والذات وتفسير علاقته بالجسد ونشوئه من المادة، حيث مازالت الحيرة شاخصة ومازال علماء الفلسفة يقدمون صوراً للعقل علّها تناسب الصورة الحقيقية لذلك العضو المادي المعقد (الدماغ).

الفكر مذكراً بالعقل

لم يكن لليونانيين الأوائل اهتمام بالعقل كعقل فردي، كعضو أو جزء في الإنسان، كان الموقف حوله غامضاً، فلم توجد بعد الحاجة إلى ترسيم صورة لوعي الإنسان كما حدث لاحقاً مع أفلاطون وأرسطو وما بعدهما، لأن هدف الإنسان كان عقل العالم العقل الكلي (العام) الذي ينتظم العالم؛ وهذا أراه منطقياً كون الإنسان منذ مراحل تطوره الأولى لم يكن سواه والبيئة معاً. وكونه قادراً على التحول العضوي لم

يكن أمامه من أجل التغلغل في البيئة سوى العمل بيولوجياً على تحسين جهازه الواعي بهدف التكيف معها، وبعد ذلك من أجل فهمها وفهم العالم ككل. وظل هذا الهدف قائماً حتى مراحل التفكير الفلسفي الأولى بعد أن أصبح الإنسان الواعي كبديهية نسيت جذورها ولكن بقي هدف التكيف كامناً في اللاوعي متحولاً إلى صيغة أكثر تطورية تحاول حل لغز العالم من أجل فهمه. . . هذه الصيغة وفرّت إمكانية إيجاد توصيف منطقي يتناسب مع عظمة وتنظيم وترتيب ظواهر العالم وحركاته وسكوناته وتغيراته وحوادثه ووجوده وعدمه، وهو توصيفه من خلال اللوغوس أو العقل؛ الكلام الأخير يشير إلى بدايات تمظهر لمفهوم عقل. ولكن ليس، العقل الجزئي المحسوس بل العقل بمعناه العام الذي يهدف إلى أن يكون للعالم عقل هو مسؤول عن كل ما هو ظاهر ومخفي وعن محركات وقوانين الكون أو العالم، وهذا وارد لأن الموقف حول وعي الإنسان كان يشير إلى أن التفكير معطى لذا لا يحتاج إلى بحث وأن ما يحتاج إلى البحث هو العالم اللغز، فإذا كان "الفكر يمثل أحد العمليات أو الوظائف العقلية والمخية التي تشمل أيضاً الذاكرة والانتباه والخيال واللغة"[8]، فإن الإنسان في هذه الفترة المبكرة كان على

---

(8) جعفر، نوري، اللغة والفكر، مكتبة القومي، الرباط، 1971 ، ص98.

وعي وهو يمارس كل هذه العمليات، فهي بالنسبة له تحصيل حاصل مما لم يجعلها محط إثارة وانتباه بقدر ما كان العالم كذلك، ولاسيما عندما أصبح الوعي تساؤلياً وتحليلياً ونقدياً وأمامه موضوع يستفز هذه الخصائص وهو العالم بغرائبه ومشكلاته وأسئلته الكثيرة فألقى على عاتقه التفكير بها وتأملها. فالعالم يتطلب تفكيراً والإنسان أهل لذلك فهو الكائن الوحيد المفكر، الأمر الذي ألزمه بواجب البحث عن حلول لمشكلات العالم بتفكيره... وهذا التوصيف ليس غريباً، "فالتفكير ليست له نقطة بداية فهو لا بدّ أن يبدأ مما هو ملتبس واصطلاحي"[9]. لكن رغم البدء بالغموض فإن التفكير يعد الخطوة المهمة للتذكير بالعقل، وتأمل العالم يعد الممهد لتأمل الإنسان وبالتالي عقله، كون التفكير في الفترة المبكرة من الفلسفة قد مارس حكراً على التأمل، الذي يخص العقل والبعيد عن الحواس، لإيجاد الحلول. هذا الأمر أشّر على مسألة مهمة في الفلسفة وهي أين تكمن المعرفة الحقة.

فلأن العالم بظاهره أعطى صورة تتحدث عن التغير والفساد، وأن معرفته بالحواس تزيد من تشويشه فكان

---

(9) اومنيس، رولان، فلسفة الكوانتم، ت: أحمد فؤاد باشا ويمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، الكويت، 2008، ص 34.

الافتراض أن هذه الصورة لا تمثل حقيقة العالم، وأن وسيلة معرفة هذه الحقيقة لا يجب أن تكون الحواس بل العقل وهنا، وإن كان الهدف يكمن في معرفة العالم لكن يمكن اعتباره المبادرة الأولية للاقتراب من جزء يخص الإنسان وهو العقل، وهو ما نلمسه مع هرقليطس، فهو عندما جعل اللوغوس = العقل مرتكز العالم معبراً عن حقيقة العالم التي هي النار، كان منطقياً أن كل شيء في العالم مرتبط بالعقل والنار وأهمها عقل الإنسان، فهو جزء من العقل الكلي وحائز على الحقيقة كونه جزءاً من النار. وهرقليطس هنا، قد حدّد وإن من دون قصد، أقول قد حدّد الصورة الفسلجية للعقل بقوله بأنه جزء من النار. فطبيعة العقل نار إذن، ولكن كون العقل يواجه أفكاراً تأتي من العالم الخارجي عن طريق الحواس فإنه تشكل بما يتوافق مع ذلك، من هنا، أضحت وظيفة العقل الفسيولوجية مع هرقليطس متمثلة بإدراك الحقيقة، وقد أصبحت هذه المسألة أي تحديد وظيفة للعقل أساسية مع اللاحقين، فإمباذوقليس عدّها التفكير وانكساغوراس عدّها الإدراك، لكن ما يثير الانتباه مع إمباذوقليس هو أنه قد التفت إلى العقل الجزئي بصورة واضحة عندما جعله عضواً؛ فهو قد طابق بينه وبين القلب، والأكثر من هذا أنه قد حدد مكانه بإشارته إلى أن مقره الصدر. وحاول تشريحه قائلاً: "القلب هو المكان الذي يسميه الناس العقل لأن الدم الموجود حول

القلب هو العقل في الإنسان"[10]. وقد بلغت القدرة التشريحية خطوة متقدمة في بحث العقل الفردي مع انكساغوراس عندما قدم وصفاً لوظيفة الإدراك قائلاً: بأنها تمثل الوظيفة "بالإحساس العضوي المرتبط بعصب الحس في المخ، فالإدراك يعتمد على انفعال المتضادات مصحوباً بالألم... ومن هنا، فإن العقل وحده هو الذي يعطينا المعرفة الحقة"[11]. وهو كلام يشير إلى القدرة على البحث الفسيولوجي، ولاسيما عندما أشار انكساغوراس إلى أن المعرفة الحقة تحتاج إلى مقر خاص، وطرح إجابة سابقة لزمانه عندما أدرك أن هذا المقر مجاوز للمادة وهذا يتضح من خلال وصفه للعقل بأنه "ألطف الأشياء وأدفؤها وأرقها... صفته البساطة لأنه غير مركب؛ قائم بذاته ولا يشبه المادة لأن في كل شيء جزءًا من كل شيء ما عدا العقل"[12]. وهكذا، فإنه وبغض النظر عن تبريرات البحث في العقل سواء البحث عن مصدر للمعرفة الحقة أو بسبب الفساد والتغير في العالم الحسي أو غيرها، نقول: إنه في ظل

---

(10) النجم، محمد حسين، السوفسطائية في الفكر اليوناني، بيت الحكمة، بغداد، 2008 ، ص 74.

(11) آل ياسين، جعفر، فلاسفة يونانيون من طاليس إلى سقراط، مكتبة الفكر العربي، بغداد، 1985 ، ص 83.

(12) آل ياسين، فلاسفة يونانيون، ص 81.

أبحاث عقل العالم العام هذه بدأت تتكشف بدايات الانتباه إلى العقل الجزئي العقل الفردي، ويمكننا أن نقول: إن صح القول أيضاً، إن صفات العقل الفردي ربما ستطرح نفسها لاحقاً وفقاً لصفات العقل الكوني في هذه الفترة ولاسيما مع هرقليطس وانكساغوراس اللذين جعلاه يمثل درجة عالية من التجريد والتنظيم والتفكير الحق.

ملامح أعضاء العقل

بعد أن اتضح مكان المعرفة الحقة (العقل) بدأت الإجابات عن الأسئلة حول العالم تتخذ شيئاً فشيئاً تكوناً أكثر دقة، كونها بدأت ترتبط بالمنطق العقلي والترتيب الفكري والعلم القياسي والبرهاني، وبدأ مفهوم العقل يأخذ مساراً خاصاً اتضحت معالمه شيئاً فشيئاً مكوناً حقلاً مهماً بل ومن أهم أبحاث الفلسفة لسببين:

الأول، أن المعرفة الحقة بدأت ترتبط بما هو مقدس سواء عالم المثل الحقيقي عند أفلاطون أو عالم ما فوق القمر والجواهر عند أرسطو، ولم يكن في الأرض ما يجيد هذه المعرفة المقدسة الحقة سوى العقل.

والثاني، أن سقراط، الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، كان إشارة إلى أنّ في الأرض ما هو أساسي ومهم وأهمه الإنسان الذي اصبح مجالاً للدراسة في كل تشكلاته

وأهمها العقل الذي به تعرف الأمور توازناتها وصحتها، وهو ما فتح الباب أمام الفلسفات اللاحقة التي توسعت معها التفصيلات حول المعرفة الحقة والمزيفة، حيث حاروا في أن العقل هو مصدر المعرفة، لأنه سيظهر سؤال يستفسر عن دور الحواس في صياغة المعرفة الحقة هل في تكميلها أم في تشويشها؟ وهل أن المعرفة العقلية متكاملة؟ وهل هي معزولة عن المعرفة الحسية؟ وإذا كان ذلك كذلك، فهل هناك أنواع من المعارف؟ هذه الأسئلة والبحث في أجوبتها طرح فكرة أن المعرفة تتدرج بالكمال؛ ونستطيع القول: أنه بهذه النتيجة حول المعرفة يكون الفلاسفة قد عثروا على الوسيلة التي دلتهم على العقل. فمن أجل إيجاد تبرير لأنواع المعارف وتدرجاتها بالكمال شقت الفلسفة طريقها نحو تحليل مكونات العقل أو أعضائه وتوصيف وظائفها.

وبدأت الرحلة إذن، إلى العقل الجزئي أو الفردي وبدأت حيوية الفلاسفة تظهر بهذا الشأن منذ أفلاطون.

وإذا بدأنا به ـ أي أفلاطون ـ سنشهد إعلانه الصريح بالاعتراف بالعقل الفردي عندما جعله قوة كامنة في الإنسان. وهو اعتراف ينقلنا إلى مرحلة جديدة تجعل من العقل مكوناً أساسياً في الإنسان، لاسيما وأن المعرفة الحقة تستند إليه. ولم يجد أفلاطون أن ذلك كافياً لتصنيف حالات الإنسان المعرفية، بل قد وجد أنه من الضروري تشريح هذا العقل

لرؤية مكوناته (أعضائه) وتشخيص وظائفها من أجل أن نضع إصبعنا على المعرفة الحقيقية، ما أهله للقول: إن العقل مكون من ثلاث قوى " قوة شهوية وقوة ذهنية وقوة غضبية "[13]، وهو ما يفسر السلوكات المختلفة بالكمال عند الإنسان. ففي العقل هنالك الشهوة وهنالك الغضب، لكن الأعم أن الإنسان عقلاني في أحكامه وهو ما يفسر أن العقل هو قائد القوتين الأخريين نحو التوازن؛ وهذا يشير إلى أن أفلاطون يؤمن بأن الإنسان مجموعة من المشاعر التي تصوغ ما يسمى الذات، والعقل المجرد هو العقل العارف بدون أهواء (بدون شهوة وغضب). لكن طبيعة تكوين الذات هذه تجعل العقل يكافح من أجل الوصول إلى المعرفة الحقة طالما أنه مكون من قوى أخرى شهوية وغضبية.

إنّ وصف أفلاطون للعقل بالقوة يكون قد أعلن عن طبيعته الفسيولوجية، فطبيعته هي القوة أو المركز المركب، ولما كانت المعرفة الحقة تحصل في العقل فإننا نستطيع أن نلمح معه بعداً فسيولوجياً آخر يتحدث عن وظيفة هذا العضو (العقل) وهي " إدراك الموضوعات المختلفة للحواس وفي مقدورها أن تركب بعضها مع بعض في ظاهر الحس وفي

(13) أفلاطون، الجمهورية، مكتبة النهضة، بغداد ، 1986 ، ت:حنا خباز ، ص 137.

وقت واحد..."[14]. وضمن كلامه عن وظيفة العقل كان قد أشار إلى أن في العقل أداة تساعده على تصحيح مساره وإزالة الغموض من الموضوعات الصادرة إليه وهي (الفكر) قائلاً: إن العقل عندما يحار "يوقظ قوة الفكر الداخلية للفحص"[15].

وربما لتعمق أفلاطون بالمجرد لم يشأ أن يجعل العقل ناتجاً أرضياً، فبرأيه: إن العقل بقواه ومكوناته (أعضائه) قد حاز على صورته الفسلجية في عالم سابق عندما كانت النفس بصحبة الآلهة في عالم الحقيقة، وهو ما يفسر حسب أفلاطون تشكيل العقل فسلجياً على شكل مبادىء مجردة وضرورية وأفكار ومقولات. وهي صورة تعلن فسلجياً أن في العقل عضواً أساسياً حاز عليه مسبقاً وهو "ملكة للمفاهيم... المفهوم ليس مجرد فكرة في العقل بل هو شيء له حقيقته الخاصة به"[16]. وإنه بهذا العضو سوف نتعرف إلى العالم الحقيقي عالم المثل.

فالصورة الفسلجية للعقل عند أفلاطون تشير إلى أنه عقل ذو ماهية ميتافيزيقية امتلكها في زمن سابق، وأنه مشكل من

---

(14) بيصار، الفلسفة اليونانية، ص 81.

(15) أفلاطون، الجمهورية، ص 214.

(16) ستيس، وولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة، القاهرة، 1984، ص 158.

أعضاء لها وظائف، في إشارة إلى أن العقل بكل مكوناته يؤلف بنية.

ولم يلاق هذا العرض الفسلجي الأفلاطوني للعقل ذو الواقع المجرد البعيد عن الواقع الأرضي رضا أرسطو ربيب الواقع. ففلسفة أرسطو التي تتداخل فيها الفيزيقا بالميتافيزيقا كانت قد انطلقت من الواقع لتفسير كل شيء، لكن دون أن تنسى التجريد. فكل شيء هيولى وصورة، ولكل شيء فعل وغاية. وهذا يعني أن لكل شيء ماهية تشكلها صورة ولها وظيفة، بمعنى أن كل شيء له بنية ووظيفة وهو ما يؤشر إلى قدرة أرسطو الفسلجية التي ستتكشف مع بحثه في العقل.

لقد كانت أمام أرسطو بنية لا غنى عنها للإعلان عن الخريطة الفسلجية للعقل، وهذه البنية (العضو) هي النفس. فالنفس كبنية (عضو) تتألف من أجزاء متدرجة الكمال وأعلاها كمالاً هو العقل؛ فالعقل هو عنصر أو ملكة من ملكات النفس إلى جانب ملكة الإدراك الحسي وملكة الحس المشترك وملكة الخيال وملكة الذاكرة. وما يجعل هذه الملكات تمثل بنية هو أنها جميعاً تترابط بعلاقات ضرورية لتؤلف أجزاء صورة النفس (الوعي - الذات). وهي متدرجة الكمال من الأدنى إلى الأعلى من أجل تفسير الوعي المتفاوت حسب الموضوعات من الواقعي إلى المجرد، والمجرد بالطبع هو من اختصاص الملكة الأعلى (العقل)،

ولما كان شغل أرسطو هو البنية والوظيفة كان قد رأى في جميع أجزاء النفس هذه بنى بدورها.

وما يهمنا هو بنية العقل، وماهيتها، وأجزاؤها (اعضاؤها)، ووظائفها... كما مر سابقاً، فإن أرسطو يجعل ماهية بنية (عضو) العقل أي (مادتها الخام) هي الهيولى غير المتشكلة وفي هذه المرحلة العقل يشبه " لوحاً ليس فيه كتابة بالفعل"[17]. ولكن عندما يبدأ هذا العقل بالتفكير بالفعل فإنه عندئذٍ يبدأ بفاعلية إيجابية بالنقش على هذا اللوح (الصورة)، ويلوح هنا، أن أرسطو قد جعل بنية العقل تتألف من عنصرين (عضوين) لكل منهما وظيفته وهما: العقل المنفعل والعقل الفعال. الأول يمثل درجة العقل الدنيا والثاني يمثل درجته العليا. ودراسة فسلجية لهذين العضوين تظهر وظيفتهما التي يحددها أرسطو كالتالي: "الأول استعداد القوة لأن تعقل والثاني عقلها بالفعل"[18]. فبالنسبة لأرسطو العقل هو قوة التفكير وهذا العقل قبل أن يفكر بالفعل، أي عندما يفكر بالقوة يمثل العقل المنفعل وقد أعطى أرسطو أهمية أكبر للعقل بالفعل (الصورة) على العقل المنفعل (الهيولى).

---

(17) أرسطو، في النفس، شرح وتحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1980، ص 74.

(18) بيصار، الفلسفة اليونانية، ص 119.

إن بحث أرسطو هذا يحوي جدة سابقة لأوانها لولا مواقفه الميتافيزيقية، فهو عندما طرح النفس كبنية بوظائفها كأنما لسان حاله يشير إلى الذات بمفهوم بوبر الفيلسوف المعاصر. فالنفس لديه ليست شيئاً يحل في شيء، بل أنها ترتبط بعلاقة عضوية بالجسد من خلال وظائفها، والدليل على ذلك أن النفس تفنى بفناء الجسد. ولو توقف أرسطو عند هذا الحد لكان قد طرح نظرية معتمدة ولكنه قد أقحم موقفاً ميتافيزيقياً يقول: إن النفس تفنى بفناء الجسد لكن "ما عدا العقل الفعال فهو الذي يبقى خالداً"[19]. وهو ما يؤكد مقولته إن العقل " قوة مفارقة للجسد"[20]، وهنا، قد غاب عن أرسطو بأن خلود جزء من بنية وفناء بقية أجزائها هو تفكيك للبنية والتفكيك يعني انفراط الأجزاء والعلاقات الضرورية التي تتآلف لتشكل الوظيفة المتكاملة وعندها تتلاشى الوظيفة، بمعنى أن العقل الفعّال من دون ذاكرة وخيال... الخ العناصر التي تشكل النفس سيكون خاوياً لا معنى له.

العقول أعضاء للعقل

عندما طرح الدين عالماً مفارقاً للمادة يمثل الحقيقة لم

(19) ستيس، ص 248.

(20) أرسطو، النفس، ص 73.

يحزْ الفلاسفة المسلمون في الوسيلة للاستدلال على هذا العالم وحقائقه. ففضلاً عما قدمه الدين من أدلة على أهمية العقل لهكذا عمل، فإن الأجوبة اليونانية كانت في متناول الأيدي ولاسيما في طروحاتها، التي تناولت قدسية وكمال الموضوعات المفارقة للمادة وكيفية الاستدلال عليها عقلياً برابطة هي جزء من الله أو فعل منه وهي العقل.

فالعقل الجزء الأكمل في الإنسان كان ضالة الفلاسفة المسلمين لتفسير العلم الإلهي، وكذلك لتفسير ظواهر العالم المادي، وأيضاً، لاستنتاج الصورة المعرفية الآتية من الحواس وتفريقها عن العقل... الخ هذا الأمر وغيره جعل الفلاسفة المسلمين يبحثون عن أماكن المعارف الحسية والعقلية، المحسوسات والمعقولات، وهو الطريق الذي جعلهم يدخلون من دون أن يدروا إلى طريق يطرح العقل بصورة فسلجية ويعلن عن إمكانية تشريحية للعقل والأفكار، حيث سنشهد جهداً واضحاً لتعيين وتحديد مكونات العقل (أعضاؤه ووظائفه) وإن كان هدفهم إيجاد تفسير لأنواع المعارف، لكنهم قدموا صورة فسلجية كشفت عن ماهية العقل كبنية أو عضو وعن مكوناته وأعضائه (عقوله) ووظائفها.

إن ماهية العقل عند أغلب الفلاسفة المسلمين لم تتحدد كشيء ملموس بل كخاصية تمثلت بـ"الاستعداد". ولكن هذا الاستعداد لا يوجد معزولاً لوحده بل أن وجوده مرهون

بعضو أساسي وهو العقل الهيولاني، فيمكن القول عندئذ: إن العقل الهيولاني هو الماهية وإن هذه الماهية ليست سلبية بل نشطة بفضل خاصية الاستعداد. ويبدو أن العقل الهيولاني هنا مشابه للعقل بالقوة عند أرسطو، لكن الاختلاف هو أن المسلمين لم يقصدوا من العقل الهيولاني لوحة ينقش عليها كما قال أرسطو، لأن "تشبيهه بلوحة معناه تشبيهه بشيء متعين بينما هو خال من كل تعيين"[21] عندهم. لهذا رفض ابن رشد أن تتقوم المعقولات بعضو اسمه العقل الهيولاني وفضّل أن يسمي الاستعداد أو القدرة في العقل على تلقي الصور الفعلية بالعقل الهيولاني[22]. فالعقل الهيولاني عنده هو مجرد استعداد في الإنسان على التعقل،ولكن مع هذا يعد العقل الهيولاني العضو الأكثر بروزاً عند الفلاسفة المسلمين وهو ليس "صورة من الصور بل موضوع لكل صورة "[23].

القول بأن العقل الهيولاني موضوع لصورة أو أنه استعداد هو تلميح إلى عضو آخر في خريطة العقل الفسلجية، وهذا العضو هو العقل بالفعل. يقول الفارابي: عقولنا تكون "أولاً

(21) أرسطو، في النفس، مقدمة، بدوي، ص 2.

(22) الجعفري، ماهر اسماعيل، ضمن ندوة ابن رشد وفلسفته بين التراث والمعاصرة، ج 1، بيت الحكمة، بغداد، 2000، ص 262.

(23) بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، منشورات ذوي القربى، ايران، قم، العراق، بصرة، ص 57.

بالقوة ثم تصير بالفعل وذلك أنها تكون أولاً هيئات قابلة معدة لأن تعقل المعقولات ثم بعد ذلك تحصل لها المعقولات وتصير حينئذ بالفعل"[24].

ولم يجعل ابن سينا العقل الهيولاني استعداداً فقط، بل جعل فيه حالة خاصة هي بمثابة عضو آخر وهو العقل بالملكة، الذي تقوم فيه المبادىء أو "المعقولات الأولى وهي المقدمات التي يقع بها التصديق لا باكتساب ولا بأن يشعر المصدق بها أنه كان يجوز له أن يخلو عن التصديق بها البتة مثل اعتقادنا بأن الكل أعظم من الجزء وأن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية، فيما بينها، وما دام أنه يحصل فيه من العقل هذا القدر فإنه يسمى عقلاً بالملكة"[25]. وهذا العقل، أي العقل بالملكة قد تجسد مع ابن رشد بالعقل بالفعل بالتحول من الاستعداد إلى الفعل... الكلام السابق يتحدث عن انتقال من العقل الهيولاني(بالقوة) إلى العقل بالفعل. والسؤال: كيف يتم الانتقال؟ هل يتم بقفزة؟ أم هنالك وسيلة للربط؟ تركزت الإجابة على أن الانتقال ليس بقفزة وإنما هنالك وسيلة للربط وهي وظيفة

---

(24) الفارابي، أبو نصر، السياسة المدنية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1964، ص 34.

(25) أرسطو، في النفس، مقدمة، بدوي، ص 3.

لعضو آخر وهو العقل الفعال أعلى العقول. الفعال لما دونه والمنفعل لما فوقه، فالإنسان "لا يحصّل المعرفة باجتهاده بل تجيء إليه كهبة من خارجه، هبة من العالم الأعلى وعن طريق اتصال العقل الفعال ـ العقل الأعلى من الإنسان ـ بالإنسان يستطيع الإنسان أن يحصّل المعاني الكلية عن الأشياء وبهذا يتحول الإدراك الحسي إلى إدراك عقلي"[26].

وهكذا، فإن تقديم صورة فسلجية للعقل عند المسلمين يجعلنا نرى خريطة من العقول (الأعضاء) تبدأ بالعقل الهيولاني الذي هو مجرد استعداد لكنه يحصل على ملكة قادرة على الفهم وهي العقل بالفعل، ثم يأتي دور أعلى هذه العقول وهو العقل الفعال[*] الذي يمده الله من فوق بالصور الكلية العقلية. لذا، فهو فعال لما دونه ومنفعل لما فوقه. وقد أضاف الفارابي إلى هذه العقول (الأعضاء) عقلاً (عضواً) رابعاً وهو العقل المستفاد الذي أحياناً يجعله العقل الفعال نفسه وأحياناً يجعل العقل الفعال نوعاً من العقل المستفاد[**]. وهو مع ابن سينا العقل القدسي، كون العقل الهيولاني عند ابن سينا إذا ما حاز على المعقولات الأولى

---

(26) كامل، جلال وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مكتبة النهضة، بغداد، دار القلم، بيروت، 1983، ص 289.

(*) نشهد هذا مع الإسكندر الأفروديسي الذي يجعل أعضاء العقل ثلاثية.

(**) راجع أرسطو، النفس، المقدمة، ص 4.

كان هناك "عقلاً بالملكة، وإذا كانت هذه المعقولات بالفعل كان هناك عقلاً مستفاداً، وإذا كان استعداد العقل الهيولاني إلى درجة لا يحتاج معها الاتصال بالعقل الفعال فعندئذ يكون عقلاً قدسياً وهو من جنس العقل بالملكة إلا أنه رفيع جداً ليس مما يشترك فيه الناس كلهم"[27]. ففسيولوجيا العقل عند المسلمين تظهر صورة أولى للعقل وهي الهيولى التي تتحول بفعل المعارف إلى صور من اختصاص عقول هي أعضاء للعقل. فالمعرفة مرهونة بالعقل سواء أكانت البديهيات (المعقولات) أو الحسيات، وهذا معروف منذ زمن المعتزلة الذين رأوا أن ما من قضية لا يمكن للعقل الإنساني من أن يدركها "حتى المعرفة الحسية تدخل في نطاق وظيفته من وجهين: أولاً، من حيث كون المحسوسات من موضوعات المعرفة العقلية، وثانياً، من حيث كون العقل هو الذي يحول الإدراكات الحسية إلى إدراكات عقلية"[28].

نستنتج أن العقل عند المسلمين هو بنية مؤلفة من عقول (أعضاء)، وهذه العقول ليست تقسيمات للعقل بقدر ما أنها تشكل وحدة، تقوم بينها علاقات ضرورية لتفسير الوعي والإدراك.

---

(27) بدوي، عبد الرحمن، موسوعة، ص 57.

(28) مروة، حسين، النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية، دار الفارابي، بيروت، 1978، ص 822.

إن هذه العقول وإن كانت تتطلع إلى الأعلى، أي إلى الإله والمعرفة الإلهية لكنها أيضاً، كانت قد قدمت صورة فسلجية لعقل الإنسان الفرد كاشفة عن فاعليته العملية على الأرض كما في العقل الفاعل عند أرسطو، فهو " القادر على تحرير المعنى الكلي في الحواس الجزئية... أو أن العقل منفعل أي لديه قوة الاستقبال "[29]، ما يعني تفاعله مع البيئة المحيطة به.

ومن ثم فإن البحث في العقل كان قد وفّر جواباً عن الروح سواء عند اليونانيين أو المسلمين. فالالتفاتة الأولى كانت من خلال إدراك الإنسان أن هنالك نفس داخلية يمثلها شعور داخلي ووعي بالذات، بمعنى أن الإنسان قد وجد تفسيراً لظواهر تختلف عن الظواهر المادية هي ظواهر للشعور والأحاسيس والخيال والتفسير، ظواهر لم يكن لها مكان في العالم المادي، بل أن مكانها يصرح عن نفسه من داخل الإنسان من النفس الداخلية من الذات بمعنى أن فسيولوجيا العقل التي كشفت عن بنى ومكونات عقلية ووظائف ليست إلا تفسيراً للذات التي تشكلت بفعل الوعي والشعور وتراكم المعرفة والإرث الثقافي.

---

(29) حماش، محمود حياوي، العقل والدماغ، بيت الحكمة، بغداد، 2002، ط1، ص4.

نضوج البحث الفسلجي للعقل

رغم اجتياح العلم للساحة الفكرية في العصور الحديثة ورغم جعل التجربة منافساً جدياً للعقل على الساحة الفلسفية، فإن هذا لم يمنع من أن يكون العقل محوراً للبحث التشريحي عند الفلاسفة سواء من العقليين أو من التجريبيين وذلك لسببين:

الأول، إن العلوم العلمية في هذه الفترة قد عززت لدى الفلاسفة هدفهم الأزلي في أن المعرفة هي من صنع العقل، حيث طرحت هذه العلوم سلوكاً بحثياً يجعل العقل مساهماً كبيراً في صنع المعرفة بالإضافة إلى التجربة.

والثاني، إن الأبحاث العلمية كانت مرتكزة على الفيزياء وقوانين الطبيعة ولم تلتفت بعد إلى كيمياء الجسد وعلوم الدماغ ما جعل الساحة واسعة أمام الفلسفة لتمارس طرح الافتراضات والتصورات والنظريات حول العقل، وكانت النتيجة صوراً فسلجية عديدة ومنوعة كشفت عن إمكانيات هائلة وخيال واسع لرؤية العقل بمكوناته (أعضائه) ووظائفها... وهذه الصور يمكن تضمينها تحت نوعين هما:

أولاً: العقل معطى

سلّم معظم العقليين ـ إنْ لم نقل جميعهم ـ بأن العقل معطى، فهو موجود وله كيان ووجود خاص. وهذه المسلمة

جعلتهم يكشفون بسهولة عن ماهيته، ومكوناته، وأعضائه، ووظائفه. وغالباً ما جعلوا ماهيته متمثلة بجوهر غير مادي يحوي قدرات وإمكانيات ومبادىء وملكات ووظائف واستعدادات لتشكيل الوعي أو الفكر سمة العقل الأساسية. فالوعي عند العقليين تحصيل حاصل لتوافر إمكانيات وجوده وإمكانيات كشف وجوده منذ الأزل، وهذا ما نراه بوضوح مع ديكارت الذي بدأ فلسفته من مسلمة أن الإنسان وُجد واعياً ومفكراً. والدليل أنه ـ أي ديكارت ـ طرح الإنسان متكاملاً، فهو كجوهر مفكر يعني وعياً وروحاً وذهناً. يقول: "ما أنا إلا شيء مفكر أي روح أو ذهن أو عقل"[30]. بمعنى أن الإنسان يولد بعقل يعي ويفكر ويعقل ويشك ويفهم ويتصور ويثبت وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس... إلخ فطرياً.

فالعقل يطرح نفسه على أنه واعٍ بشكل قبلي، أي أنه معطى ولا يحتاج إلى تأصيل بيولوجي أو ثقافي على حدٍّ سواء. فهو فكر كما عند ديكارت، أو مبادىء ضرورية كما عند ليبنتز واسبينوزا أو ملكات أو قدرات كما عند كانط، من هنا انصب جهد الفلاسفة على السؤال: كيف نعرف؟ أكثر من غيره من الأسئلة.

---

(30) ديكارت، رينيه، التأملات في الفلسفة الأولى، ت:عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1951، ص 98.

(كيف نعرف؟) هو السؤال الذي يدخلنا إلى المنطقة التي نبغي بحثها وهي العقل، حيث سنشهد من خلال الإجابات المتنوعة تنوع الطرق التشريحية للعقل أيضاً. . . بمعنى أن رؤية قريبة للعقل بمناظير الفلاسفة العقليين تجعلنا نقف أمام صور فسلجية متنوعة تتسارع لتحديد أعضاء العقل ووظائفه، ولمشروع العقليين هذا أهميته من ناحيتين:

الأولى، التذكير بالعقل من خلال التركيز عليه في وقت تجاهله العلماء لسمته غير الملموسة.

والثانية، إن توحدهم حول اعتبار العقل عضواً أساسياً في الإنسان رغم تنوع صور تقديمهم له، كان الطريق نحو توفير حلول مهمة لمشكلة واقعية وهي (عمل العقل الإنساني) المشكلة التي أصبحت فيما بعد هم علماء الأعصاب.

ربما لم يتطرق الكلام السابق عن فسيولوجيا العقل عند العقليين إلى صور توضيحية، وعليه لابدّ من الإعلان عن هذه الصور بتقديم تفصيلي إلى حد ما لنطلع على توضيح أكبر من خلال الترتيب الزمني لهذه الحقبة (الحديثة).

وأولى الصور الفسلجية في هذه المرحلة تعود إلى ديكارت، فمقولته "أنا أفكر إذن أنا موجود" تدلل ـ إنْ من قريب أو من بعيد ـ على ماهية العقل وهي "الفكر"، وهو قول يجعلنا نقع على العضو الأساسي وربما الأوحد للعقل وهو الفكر، كون العقل جميعه فكراً، فديكارت قد حدّد

أولاً، ماهية العقل باعتباره "هذه الماهية ـ هي ـ الفكر"[31]. ومن ثم ولتمييز الفكر عن ما هو جسمي عيّن خاصيته الأساسية قائلاً: ان "طبيعة هذا الفكر هو أنه غير ممتد"[32] بمعنى أنه خالٍ من الأبعاد الجسمية فهو ليس بجسم وهذه نقلة في تاريخ الفلسفة لسببين:

الأول، إنها قد أيقظت الفكر الفلسفي على ثنائية أضحت إشكالية سار على حلها مجمل الفلاسفة.

الثاني، أظهرت الاستعداد التشريحي عند ديكارت عندما حار في الربط بين طبيعتين مختلفتين في الماهية أي الجسد والروح (العقل والدماغ)، لاسيما وهو قد درس علم التشريح ويقال: إنه راقب مرة واحدة تشريح جثة ليكتشف مكان الاتصال بين العقل والجسد وفي نهاية المطاف أتى بالفرضية التي تقول: إنه يجب أن تكون الغدة الصنوبرية، وهي فكرة كانت معقولة برأيه وقدم حجة لدعمها عندما لاحظ "أن لكل شيء في الدماغ توأماً في الجانب المعاكس من الدماغ، ولأن الدماغ مقسوم إلى كرتين يبدو أن وظائفه تحدث بفعل مزدوج... فلا بدّ من وجود نقطة موحدة في الدماغ يلتقي

---

(31) انظر سيرل، جون، العقل، ت:ميشيل حنا متياس، عالم المعرفة، الكويت، 2007، ص 16.

(32) ديكارت، رينيه، مقالة الطريقة، ت: جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1970، ص 43.

فيها التياران معاً. والعضو غير المزدوج الوحيد الذي استطاع اكتشافه داخل الدماغ هو الغدة الصنوبرية، ولهذا افترض أنها يجب أن تكون نقطة الاتصال بين العمليات العقلية والجسدية"[33]. فالقدرة التشريحية لدى ديكارت كانت قد تجسدت بهذا الشكل المادي ليعلن إمكانية الاتصال بين العقل والجسد. . . وهي خطوة تدعو إلى التفاؤل في متابعة البحث التشريحي للعقل غير المادي.

إن النتيجة التي أوصلتنا إلى القول بأن ماهية العقل هي الفكر وهي غير جسمية ـ أي غير ممتدة ـ لم تكن حاسمة ونهائية، بل كانت البداية لتساؤلات متجددة باستمرار: البحث عن كيف يفعل الفكر؟ ماهي الأعضاء التي تحرك الفكر وتجعله يقوم بعمله؟ وهل هذه الأعضاء مكتسبة أم فطرية؟

الآن إذا كان العضو في الفسيولوجيا يجب أن تكون له وظيفة فإن ديكارت كان حريصاً على تعيين وظائف أعضاء العقل؛ فوظيفة الحدس كعضو بصيرة العقل أو النور الفطري للعقل أو الغريزة العقلية، أقول وظيفته تتعلق بالإدراك المباشر لماهية الشيء كـ "فكرة ما من تصور أو حكم أو استدلال بفهمها بتمامها في زمان واحد لا على التعاقب"[34] ولكن

(33) سيرل، العقل، ص 32.

(34) أمين عثمان، ديكارت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط7، 1976، ص 90.

لما كانت كل المعارف ليست مباشرة بل هنالك معارف تعنى بتراكم المعارف المباشرة التي تخزن في الذاكرة، وهي المعارف السابقة التي جعلت ديكارت ومن خلال تشريحه للعقل يقع على العضو المسؤول عن هذه المعرفة وهو الاستنباط. والاستنباط كعضو أساسي في العقل يبقى على صلة بالحدس رغم اعتماده على المعارف السابقة لأنه " لما كانت المعارف السابقة هي في النهاية حدوساً كان يقين الاستنباط متعلقاً بالحدس"[35]. وهذا لا يعني أن ديكارت قد أهمل الحواس فالفكر يشملها أيضاً، يقول: "أنا أقصد بلفظ الفكر كل ما يختلج فينا بحيث ندركه بأنفسنا إدراكاً مباشراً ومن أجل هذا لا يقتصر مجال الفكر على التعقل والإرادة والتخيل بل يتناول الإحساس أيضاً"[36].

مما سبق، ظهر لنا ديكارت وهو يحمل لواء التشريح بتقديمه لتلك الصورة الفسلجية للعقل التي رأت في العقل بنية تحوي عضواً أوحد هو الفكر غير الممتد، وهذه البنية فيها عضوان رئيسيان هما: الحدس والاستنباط، لكل منهما وظيفته الخاصة، وإن هذا العقل مرتبط بالجسد من خلال

---

(35) بلدي، نجيب، ديكارت، دار المعارف، مصر، ط2، 1968، ص 66.

(36) ديكارت، رينيه، مبادىء الفلسفة، ت:أمين عثمان، أمين، دار الثقافة، القاهرة، 1975، ص 57.

الغدة الصنوبرية مما يجعله معبراً عن كل ما بالجسد من ظواهر وحالات. ولم يفتنا أننا قد لمحنا ـ فيما سبق ـ قدرة تشريحية لكل الأفكار والمفاهيم ولاسيما الكوجيتو، فديكارت بهذه الفكرة كان قد قدم تشريحاً لكل تمفصلات الوجود الإنساني والعالم والله. فأعضاء العقل وبسبب مصداقيتها ستمكننا من معرفة كل الأجوبة.

ولم تخرج الصورة الفسلجية التي قدمها ليبنتز عن العقل عن أهم النقاط التي طرحها ديكارت في أن الإنسان يولد وهو مزود بالعقل، وأي عقل هو عقل يملك إدراكات واضحة ومتميزة وقدرة على تعقل الإدراكات. فهو وإن لم يقل بأن الفكر يملأ العقل لكنه كما هو الحال مع ديكارت، فقد أكد بأننا لو شرّحنا العقل فسلجياً لوجدنا الكثير مما فطر فيه من مبادىء وحقائق ضرورية وربما يسعنا أن نقول: بأن هذه المبادىء الأولية والحقائق هي بمثابة أعضاء، كون العقل ينشط معها من خلال وظائفها كما في مبدأي "عدم التناقض والسبب الكافي"[37] مثلاً، فهما بمثابة عضوين: كون الأول يؤدي الوظيفة الرياضية والثاني يؤدي وظيفة المعرفة الواقعية؛ فبدون هذين العضوين هل كنا سنتعرف إلى الرياضيات

---

(37) ليبنتز، غوتفريد، المونادولوجيا، ت: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة، القاهرة، 1978، ص143.

والطبيعة؟ جواب ليبنتز بالتأكيد سلبي، لاسيما وأن مبدأ السبب الكافي يشكل بنية (عضواً) تتألف من عضوين آخرين هما: مبدأ الاتصال ومبدأ اللاامتمايزات. وظيفة الأول أن يعلمنا أن لا طفرة في الطبيعة فالانتقال متصل، ووظيفة الثاني أن يعلمنا بأن كل شيئين يتمايزان حتى وإن كانا متشابهين؛ فالعقل إذن، ليس فراغاً ثم يمتلىء بالأفكار، بل هو "قوة أو حياة تتطور وتنمو وكشف عن الذات... ولما كانت فاعلية العقل الإنساني بكاملها عفوية كان لابد له أن يولّد معرفته من داخل ذاته"[38]. فالعقل يولد مفطوراً بهذه الأعضاء الفكرية مما ترتب عليه أن تكون ماهيته غير ملموسة أيضاً كما هو الحال مع ديكارت.

وقد أوضح ذلك من خلال تعبيره عن ماهية العقل بالمونادا الشاعرة التي هي "جوهر بسيط لا أجزاء له ما يستدعي أن لا يكون لها امتداد و لا شكل ولا انقسام"[39]. ولكن مع هذا، كان همه أيضاً، حل إشكالية العقل والجسد التي طرحها ديكارت، وكان قد اختار الثنائية بطريقته الخاصة التي تعوّل على المونادات التي تجتمع فيها "الخواص العقلية

---

(38) طعمة، جورج، ليبنتز، مكتبة أطلس، دمشق، ط2، 1965، ص 90.

(39) ليبنتز، المونادولوجيا، ص 125.

والمادية بدرجات متفاوتة والتي بتجمعاتها تتكون الأشياء التي قد تظهر فيها الصفات العقلية أو تقل"[40]. وبهذه المناسبة أبدع ليبنتز الفعل التشريحي بصدد مفهوم ـ المونادا ـ حيث طرح عالماً مشكلاً من المونادات، فالمونادات هي العناصر الحقة للأشياء وأنها تفسد بالفناء وتنشأ بالخلق وليس لها نوافذ، فالتغيير يأتي من داخلها وليس من خارجها.

وليس بعيداً عن هذا كان اسبينوزا يشكل صورته الفسلجية عن العقل، فالإنسان بهذا الوعي ومن دون تعزيز علمي ومعرفي لا بدّ أن يرد عليه التساؤل: كيف فهم الإنسان العلوم الرياضية والهندسية وقوانين الفيزياء إن لم يكن العقل قد جُهز بها منذ البداية؟ وهو ما سهل مهمة العقليين في تبرير المعرفة وشجع الكثيرين على أن يخطوا هذه الخطوة. فلم يكن مثلاً، صعباً على اسبينوزا أن يعلن بأن العقل وُجد مزوداً بالمبادىء والحقائق الضرورية، ولكنه أضاف بأن الطريق لإزاحة الغبار عن هذه المبادىء الفطرية وكشفها والإعلان عنها يكون من خلال قدرات أو وظائف ثلاث: الأولى استدلالية أو استنتاجية كما في استنتاج العلة من المعلول. والأخرى حدسية كما في المعرفة الهندسية والرياضية والطبيعية وجميعها لم تكن لولا الحدس وكذلك

---

(40) حماش، العقل والدماغ، ص9.

اتحاد النفس بالجسم. والثالثة قدرة إدراكية تؤلف أفكاراً عامة تنشأ عن حالات متشابهة كما في معرفتي أن الزيت وقود للنار وغيرها(*). فأعضاء العقل إذن، لم تكن إلّا تلك الأفكار الفطرية كقوانين الهوية والثالث المرفوع وقوانين التداعي أو الترابط والعلة والمعلول وغيرها. ولم توضع هذه القوانين في العقل بصورة فوضوية، فالصورة الفسلجية للعقل التي قدمها اسبينوزا قدمت تصنيفاً دقيقاً ضم كل مجموعة قوانين في بنية معينة لها وظيفتها ـ كما شهدنا ـ كالحدس والاستدلال والإدراك؛ وبالحدس ـ كما أشير سابقاً ـ إنما نعرف العقل ووظيفته، بل العقل وعلاقته بالجسد التي رأها اسبينوزا وفقاً لمنهجه وخلافاً لديكارت لا تعبّر عن ثنائية، بل هي وحدة تتمثل في وجهين لشيء واحد هو الإنسان... وخلال ذلك مارس اسبينوزا تشريحاً لأفكار عدة أهمها وحدة الوجود والجوهر. فبتشريحه للجوهر نجده يتمفصل في خصائص وتوصيفات عديدة، فهو ما يوجد بذاته ويتصور بذاته ولهذا فهو واحد وليس متعدداً كما عند ديكارت. وهو لامتناهٍ كونه قديماً غير مخلوق وأزلي كونه علة ذاته. هنا تبدو الإشارة إلى الله أو الطبيعة حيث يتكشف الجوهر عن

(*) راجع فؤاد زكريا، \اسبينوزا\، دار التنوير، سلسلة الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص 71-72.

وجهين: وجه مادي ووجه ذهني أي أننا نعرف من الجوهر صفتين الفكر والامتداد(*).

وبالنتيجة نكون مع الفلاسفة العقليين أمام عقل معطى واعٍ بفضل ما ألقى فيه الله من أفكار ومبادىء فطرية.

ثانياً: العقل مكتسب

لم يكن التجريبيون وبسبب اهتمامهم بالتجربة وإعطاء العقل دوراً ثانوياً بعيدين عن الاهتمام بالعقل؛ فبحث جدي في دراساتهم يجعلنا نشهد صوراً فسلجية للعقل وتشريحاً لوظائفه ولكن بشكل يختلف عما قدمه العقليون.

اتفق التجريبيون في البداية على أن العقل موجود فالإنسان يعرف ويفهم ويعي ويفكر ويستنتج... إلخ مما يستدعي التسليم بشيء اسمه عقل، الأمر الذي تطلب منهم تقديم توصيف له والكشف عن كيفية عمله ووظائفه، ومكوناته... ولعل استعراضاً لآراء التجريبين حول العقل لايطلعنا فقط على كل هذه الأمور، بل سيجعلنا نشهد بحثاً فسلجياً تشريحياً واضحاً.

اعتاد التجريبيون على وصف العقل بالصفحة البيضاء. هذه العبارة التي نحتها جون لوك لا يقتصر معناها على مصدر

(*) راجع المصدر نفسه، ص 61-62.

المعرفة فقط، بل أنها تنبهنا إلى الصورة التي يمكن ان نرى بها ماهية العقل في بدءها. . . فماهيته إذن، هي هذه الصفحة البيضاء فهي ليست مجرد وصف بل ماهية للعقل، ذلك أن هذه الصفحة البيضاء فسلجياً وإن كانت خالية من أي مما طرحه العقليون من مبادىء ضرورية وحقائق أولية فطرية فيه، إلا أنها ليست بيضاء فقط بل أنها تحوي استعدادات وقابلية على التزود بالمعارف لإنضاج الوعي. فمن الناحية الفسيولوجية يكون العقل في بدئه صفحة بيضاء مزودة بمراكز استعداد للتزود بالمعارف. وهذا التفسر يشبه تفسيراً معاصراً للعقل ولكن مع فارق أن الدماغ بعيد عن التصور في ذلك العصر.

ولعل فكرة الصفحة البيضاء كان قد نبّه إليها فرنسيس بيكون في البداية، ولكن ليس بالصورة الفسلجية التي طرحها لوك وهيوم كون بيكون لايعلن عن الصفحة البيضاء منذ البدء، بل يكشف عنها بعد مهمة يجب القيام بها من أجل معرفة أفضل وهي تنقية العقل من كل الأخطاء والأوهام والأوثان السابقة حتى يكون على استعداد لاستلام المعرفة العلمية بحيادية. هذا الكلام يوضح أن العقل ـ فسلجياً ـ قد وجد وفيه استعداد لتقبل المعارف والتجارب وأن الاستعداد هنا هو بمثابة عضو أساسي في العقل، كون العقل في بدء

نموه يكتسب المعارف التي هي في بدايتها تكون مشوشة وغير موضوعية بسبب الفلسفة والأعراف والتعليم والتقليد والتي حصرها بيكون بأوهام "الجنس والكهف والمسرح والسوق"[41]. ولكن الإنسان لكي يكون علمياً ـ بنظر بيكون ـ عليه أن ينقي عقله من كل هذه الأحكام والأوهام الخاطئة المكتسبة مسبقاً، من أجل أن يجعل عقله صفحة بيضاء فارغة قابلة لاستقبال ماهو صحيح. وهو كلام يجعلنا نرى أن الصورة الفسلجية للعقل عنده تأخذ مرحلتين كلتاهما تحويان بداية عضو الاستعداد لتقبل التجارب، لكن هذا العضو العقلي في المرحلة الأولى يتقبل التجارب التي تتراكم بفعل مصادر غير علمية مما يجعلها خاطئة وتحتاج إلى تنقية، أما المرحلة الثانية فتتمثل بالعقل ذي الصفحة البيضاء التي يكون فيها عضو العقل (الاستعداد) في مرحلة نضوج ليقوم بوظيفته بطريقة صحيحة لاستلام المعارف بنزاهة وحيادية، وحينها يصاغ العقل ويتشكل فسلجياً من زرع مبادىء وقوانين جديدة وضرورية. . . ويغدو العقل في هذه المرحلة "أداة تجريد وتصنيف ومساواة مماثلة"[42]، مما يسهل عليه (العقل)

(41) See: Bacon, Francis, *Advancement of learning and novum organun*, the Colonial Press. NewYork /1900 P. 324.

(42) Ibid see p322.

تصنيف نفسه إلى خانات لملئها بالمعارف وهو ما برر لبيكون الخوض في الفلسفة ومشكلاتها من دون تردد. وكونه تجريبياً، فهو قد قسم الفلسفة إلى ثلاثة أقسام: الطبيعة والإنسان والله وقد جعلها جميعاً من مهام العقل. فالفلسفة هي تركيب عقلي تتضمن عللاً فاعلية ومادية بالإضافة إلى العلل الغائية والصورية التي تمثل ما بعد الطبيعة؛ هذا فضلاً عن إقراره بأن الإنسان يتألف من عقل ونفس ومنطق وإرادة وأخلاق وسياسة. أما الله االذي تمثله الفلسفة الأولى فهي تمثل علم المبادىء الأولى الرياضية والهندسية(*)، وكل هذه المعارف تعول على العقل. فلولا عضو الاستعداد في العقل هل كنا سنستفيد من التجارب؟ إذ أرى هنا صورة متكاملة بين العقل والتجربة، فالاستعداد العقلي يعي التجارب والتجارب المكتسبة تنمي العقل بالتدريج.

الآن إذا كانت الصفحة البيضاء هي العضو السليم عند بيكون لإنشاء المعارف التي تتكون لاحقاً، فإن لوك ومن أجل أن يدلل على أن ما من أعضاء حقيقية للعقل البشري بمثابة ملكات ومبادىء فطرية رأى بأن العقل مزود بهذه الصفحة منذ البداية وأنها ليست سلبية بل هي فاعلة كما رآها بيكون. فهي تحوي قدرات طبيعية كفيلة بإمدادنا بالمبادىء

(*) Ibid See P76-83.

والأفكار والمقولات وهذه القدرة يمثلها عضو العقل الاستعداد، وهو ما لمحه ديفد هيوم. فالعقل صفحة بيضاء لكنها فاعلة بوجود الاستعداد. ولكن أي استعداد؟ يقول: استعداد لقبول الانفعالات بالإضافة إلى "قوانين أولية... كقوانين تداعي المعاني، أي قوانين التشابه والتقارن في المكان والزمان والعلية..."[43]. فهذه القوانين هي من ينشيء الأفكار عبر علاقات متعددة وهذا ما أدركه لوك قبلاً حيث يرى بأن وجود هذه المبادىء ممكن، كون عقلنا فيه استعداد لمعرفتها وهذا الاستعداد لا يعني أنها موجودة مسبقاً بشكل فطري، بل يعني استنتاجها من خلال فاعلية العقل بتركيبه وتحليله الفاعلية التي تستطيع أن تمدنا باليقين من دون أفكار فطرية، كون المبادىء الأولية صحيحة بذاتها وواضحة ويقينية. وإننا ندرك هذا الوضوح من خلال قدراتنا العقلية وقدراتنا العقلية تتجسد بالحدس والبرهان. وإن هذه القدرات تتكون وتتشكل من الأفكار التي يتزود بها العقل من التجربة.

ففسلجياً يمكننا استنتاج صورة العقل عند لوك كالتالي:

أولاً، العقل صفحة بيضاء فاعلة بسبب وجود الاستعداد والقدرات التحليلية والتركيبية.

(43) Hume, David, *A treatise of human nature*, Vo 1, London - New York, the temple press letchworth 1951 P. 12.

ثانياً، ليس في العقل أي من الأفكار الفطرية أو المادة الفطرية.

ثالثاً، إن هذه الصفحة تملأ بالتدريج بمادة أولية مستمدة من التجربة هي الأفكار.

رابعاً، ينمي العقل هذه الأفكار ثم يخزنها في الذاكرة، وعليه تكون الأفكار هي المادة الخام التي تقوم عليها العمليات الذهنية.

ويبدو أن العقل وبسبب كونه عضواً له استعداد لتقبل الأفكار قد خلق لنفسه وظيفتين: الأولى تلقي الأفكار بصورة سلبية حيث لا يمارس العقل معها أي فاعلية تذكر فتبقى متمايزة وهي ما يطلق عليها الأفكار البسيطة، والوظيفة الثانية إيجابية، حيث يبدأ العقل بممارسة فاعليات كثيرة منها الربط والمقارنة بين الانطباعات الحسية لتكوين الأفكار المركبة[(44)]. ولعل تركيز لوك على الأفكار جعله يسبق زمانه في وعيه العلاقة بين اللغة والأفكار؛ فاللغة تتكون من جمل وكلمات و"الكلمات في دلالتها المباشرة الأولية يجب أن تكون كرموز للتصورات الداخلية أي الأفكار الموجودة في الذهن. . . هذا فضلاً عن تذكيره لنا بأهمية العلاقة بين المعنى والذهن مؤكداً

(44) See: Locke John, *An essay concerning human understanding,* Oxford-at the clarendon press, 1979, p45-55.

أن الفكرة هي نواة المعنى التي يعبر عنها بالكلمات"[45]. فالأفكار هي معانٍ، والمعاني نوعان: خارجية وداخلية وفي الأخيرة ينشأ التعقل إضافة إلى التفكير والاعتقاد والإدراك الحسي... استطاع لوك، إذن، أن يمدنا بصورة فسلجية للعقل قريبة إلى النظرة المعاصرة كونها كشفت عن أهمية اللغة والثقافة والتجارب في نمو العقل... إضافة إلى هذا فإن لوك ومن خلال تقديمه لتشريح العقل كان قد أعلن عن إمكانية هائلة في تشريح الأفكار فهي شغله الأول، ولذلك فهو قسمها إلى بسيطة ومركبة وإن قسم الأولى إلى كيفيات أولية وكيفيات ثانوية. أما الأفكار المركبة فوجدها في ثلاثة أقسام: أفكار مركبة من أعراض كالزمان والمكان واللاتناهي والجمال والكذب والشجاعة، وأفكار مركبة من جواهر كالإنسان والفرس والشجرة، وأفكار مركبة من وعلاقات[46]. وهكذا يكون لوك فسيولوجياً وتشريحياً بامتياز.

كانط عالم بتشريح العقل وفسلجته

إن أكثر ما لفت انتباهي إلى أن الفلسفة هي فسيولوجيا العقل وعلم تشريح الأفكار كانت مباحث كانط في العقل

---

(45) Ibid, p402.

(46) See: Ibid, P 295-296.

ومعارفه حيث وجدته وأنا أتابع تفصيلاته عالماً فسيولوجياً بمعنى الكلمة. فهو يشرّح العضو بثقة هائلة ويستنتج وظيفته بدقة مطلقة، ولا سيما في طروحاته حول العقل التي تشكل مركز فلسفته عموماً والتي كانت فسلجية بحتة.

طرح كانط العقل في أبحاثه وكأنه عضو مادي، فهو قد أجهد نفسه في تعيين ما فيه من مناطق من أجل تصنيف المعارف؛ وقد حاول أن يسمي هذه المناطق من خلال خصائصها ووظائفها وتخصصاتها، وطرح طرق تشابكها وسلوكها وانبثاقها وتشكلها في بنية بشكل دقيق؛ وهذا يسري على كل مكون (عضو) للعقل حيث يجعله نسيجاً يؤلف وحدة تنتج من خلالها معرفة ما.

إن المناطق التي حددها كانط في العقل طرحت صورة فسلجية تتحدث عن ثلاثة أعضاء رئيسية فطرية تشكل العقل أسماها ملكات، هي ملكة الإحساس وملكة الفهم وملكة العقل(*)، وكل ملكة منها هي بمثابة عضو، بنية فسلجية لها سلوكياتها ووظائفها وخصائصها التي من خلالها خلقت لها وظائف كالمعارف الرياضية، والطبيعية، والميتافيزيقية، والجمالية، والأخلاقية... إلخ. وهذا يشبه إلى حدٍّ ما طريقة

(*) راجع كانط، امانويل، نقد العقل المجرد، ت: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، بيروت، 1988 ، ص 59.

تعيين أمكنة المعارف الرياضية والشعرية وغيرها في مناطق الدماغ.

وفسلجياً، فإن العقل بملكاته ومبادئه وأفكاره الفطرية لا يعمل منفرداً كما هي الحال مع الفلاسفة العقليين، بل أن للتجربة دوراً أساسياً ومهماً في ترسيمه ـ أي العقل ـ وكانط هنا يطرح توافقاً جسدياً مع العقل لتصنيع المعرفة، فهو قد تبنّى الثنائية بطريقة تراعي الانسجام بين العقل والطبيعة، فبيولوجياً تستفز التجربة حواسنا لتستلم المعطيات والتي تنتقل لتستفز قدراتنا على التنظيم والفهم والمقارنة والربط والفصل، فهو عندما يقول: إن كل معرفتنا تبدأ بالتجربة يستند إلى أن "قدراتنا المعرفية لن تستيقظ إلى العمل إن لم يتم ذلك من خلال موضوعات تصدم حواسنا"[47].

إن إصرار كانط على هدف توصيفه للمعرفة هو من أجل أن يعاصر جيله من العلم والعلماء ولكن في الحقيقة هنالك هدف خفي هو البحث عن مكامن المعرفة الفسلجية فهو عندما يقول: إن ما نستلمه من الحواس ليس مجرد استلام بل هنالك عمليات أخرى كالفهم والمقارنه وغيرها فإنه يعلن عن أمرين:

الأول، وجود إمكانية ذهنية داخلية ستنشط لتصنيف ما نستلمه.

---

(47) نقد العقل المجرد ، ص45.

الثاني، البحث عن مكان هذه العمليات العقلية ومعرفة خصائصها ومكوناتها وسلوكاتها... الأمر الذي يعني أننا حائزون على ملكة تحوي مبادىء أساسية بمثابة بديهيات لفهم موضوعات التجربة بالإضافة إلى موضوعات غير التجربة.

الكلام السابق كله يدور حول عضو العقل، فبه فقط يمكن للعمليات الاستنباطية التجريدية العلمية الميتافيزيقية أن تحدث، وهو ليس العقل الذي طرحه العلم المعاصر كنتاج لوظائف الدماغ، بل هو الجزء أو العضو الأساسي في الإنسان القابل للتشريح لتعدد مكوناته (أعضائه)... ويعتقد كانط أنه الوحيد الذي استطاع تشريح العقل ولاسيما عندما صرح مفتخراً بأن كل الأحكام الرياضية تأليفية معتقداً أنها "قضية قد أفلتت حتى الآن... من ملاحظة محللي العقل البشري"[48]. وجملة محللي العقل البشري تبدو قريبة من هدفنا الذي يبدو معه كانط مشرّحاً لن يعجبه أحد من المشرّحين الذين فاتتهم عملية التشريح الصحيحة.

إذن، كانط نبهنا إلى أن العقل هو العضو الأساس المتفوق على التجربة في تشكيل المعرفة، لأنه لولا العقل لايمكن لملكة الإحساس من أن تؤدي وظيفتها. فهو قد أفهمنا فسلجياً أن المعطيات الحسية الآتية من التجربة تستند

---

(48) نفسه، ص50.

إلى أساس قبلي كامن في العقل وهما حدسا الزمان والمكان، الشرطان الضروريان لاستلام الظواهر التي توقظ فينا حاستنا الرياضية والهندسية. وهذا إن عنى شيئاً فإنه يعني أن العقل فسلجياً يحمل استعداداً رياضياً وهندسياً، كونه عند تشريحه رأى كانط أنه مكون قبلياً من حدسي الزمان والمكان. وهنا، يظهر كانط مثل علماء الدماغ يتجه باتجاه تشخيص مكان المعرفة الرياضية والهندسية وسببها لكن على خريطة العقل وليس خريطة الدماغ. وقد شخص كانط وظيفة ملكة الإحساس عندما قال: إنها تمثل قدرة العقل على استقبال التصور.

ومن خلال تشريحه التفصيلي للعقل شخّص كانط مكاناً آخر في الذهن يعالج التصورات البحتة وقد أسماها ملكة الفهم وحدد وظيفتها بـ"التوليد الذاتي للتصورات أو تلقائية المعرفة"[49]. وهذه الملكة تمثل القدرة على التفكير في موضوع الحدس الحسي... وتشريح دقيق لهذه الملكة جعله يتوصل إلى مكوناتها ووظائفها فهي تمثل الاستعداد الذهني الذي ينمو بالتجربة. يقول بهذا الصدد إنه يقوم "بتحليل القدرة الفاهمية [ملكة الفهم] نفسها تحليلاً قلما جُرّب بعد للتعرف إلى إمكان الأفاهيم [المفاهيم] قبلياً بطريقة تقوم على

---

(49) نفسه، ص 75.

البحث عنها في محل ولادتها، الفاهمة [الفهم]، وتحليل استعمالها المحض بعامة... سنتابع إذاً، الأفاهيم المحضة من... استعداداتها في الفاهمة البشرية حيث تقيم إلى أن تنمو بصدد التجربة وتعرض خالصة بعد أن تحررها الفاهمة عينها من الشروط الأمبيرية"[50]. الصورة الفسلجية في هذا النص تظهر العضو الأساسي في العقل وهو الفهم وظيفة ومكونات، فمكوناته هي المفاهيم وشروطها هي المقولات الأربع، أما الوظيفة فهي الحكم بواسطة المفاهيم فكل مفهوم يصدق على مفاهيم عدة. فالأحكام هي وظائف للوحدة بين تصوراتنا وعليه تكون ملكة الفهم بمثابة القدرة على الحكم كونها تمثل القدرة على التفكير، وإن التفكير هو المعرفة بالمفاهيم والمفاهيم هي محمولات لأحكام ممكنة على صلة بتصور لموضوع لم يزل غير متعيّن[*]. فالحكم إذن، هو وظيفة التفكير ويرجع إلى أربع مقولات الكم والكيف والإضافة والجهة التي هي قبلية أيضاً، بمعنى أن العقل مكون منها فسلجياً ومن خلالها يتشكل ـ فسلجياً ـ استعداد في العقل على فهم موضوعات العالم الخارجي. يقول معبراً عن ذلك: "إنّ المقولات ليست مبادىء معرفية أولى قبلية ومفكرة

---

(50) نفسه، ص 83.

(*) نفسه، ص 84.

تلقائياً ولا مبادىء مستمدة من التجربة، بل استعدادت ذاتية للتفكير مغروسة فينا هي ووجودنا معاً، وإن الخالق قد نظمها بحيث يتوافق استعمالها بدقة مع قوانين الطبيعة التي بموجبها تجري التجربة"[51].

فالإحساس والفهم إذن، مكونان فسلجيان أساسيان لصنع المعرفة (الوعي) ثم تشكيلها في شبكة العقل يقول: إنّ "كل معرفتنا تبدأ بالحواس وتنتقل منها إلى الفاهمة وتنتهي بالعقل الذي لا يُصادف فينا شيء أسمى منه كي يشتغل مادة الحدس ويحيلها إلى وحدة التفكير السامية"[52] وهذا كله يتم من خلال وظائف هذه الملكات.

وقد جعل كانط الوظيفة التنظيمية والتنسيقية للمعرفة داخلية بحتة فهي تتم من خلال سلوكيات ووظائف الفهم والعقل، فالفهم يوحد الظواهر بواسطة القواعد أما العقل فهو القدرة على توحيد القواعد تحت المبادىء، فالعقل لا يتصل بالتجربة مباشرة ولا بأي موضوع بل يتصل بالفهم (الفاهمة) من أجل أن يضفي على معارفها المتنوعة وحدة عقلية تختلف عن الوحدة التي يقدمها الفهم. فإذا كانت مهمة الفهم وضع الحواس تحت مفاهيم فإنّ مهمة العقل تكمن في إنشاء وحدة

(51) نفسه، ص 113.

(52) نفسه، 187.

من ترابط ملكة الفهم مع ذاتها في وضع تنوع القواعد تحت وحدة المبادىء، ويبدو أن المعرفة الحقة تزداد تجريداً مع العقل لأن الفهم يشتغل على ما يأتي من ملكة الإحساس لينشىء أحكاماً تصورية تبتعد عن التجربة والعقل يشتغل على هذه الأحكام.

فالإمكانية التشريحية لكانط جعلته يحدد موقع العقل ومكوناته ووظيفته، فالعقل معه يحتوي على مستوى آخر هو ترانسندنتالي بعيد عن التجربة يحوي أفكاراً ومفاهيم تتجاوز التجربة ولا توجد اعتباطاً بل تفرضها طبيعة العقل عينها وتصلح لأن تكون بمثابة قانون للفهم من أجل استعمالها الموسع والمتسق. وكان كانط قد وضع في باله هدف توضيح الميتافيزيقا ولم يجد مكاناً إلا في ملكة العقل حيث الأفكار الترانسندنتالية التي تهتم بالوحدة التأليفية اللامشروطة لجميع الشروط بعامة مشرحاً هذه الأفكار بطريقة معرفية إلى ثلاثة أقسام:

أولها "يتضمن الوحدة المطلقة اللامشروطة للذات المفكرة.

والثاني، يتضمن الوحدة المطلقة لسلسلة شروط الظاهرة.

والثالث، الوحدة المطلقة لشرط جميع موضوعات التفكير بعامة"[53].

(53) نفسه، ص 203.

والذات المفكرة هي موضوع السيكولوجيا أما ظاهرات العالم عامة فموضوع الكسمولوجيا، والشيء الذي يتضمن الشرط الأعلى لإمكان كل ما يمكن أن يفكر هو موضوع الإلهيات. فالعقل بصفته محضاً يطرح بطبيعته الفسيولوجية القبلية وبسستمه (نظامه، تركيبه) الترانسندنتالي يزودنا بفكرة عن النفسانيات الترانسندنتالية وعن علم ترانسندنتالي بالعالم وعن معرفة ترانسندنتالية بالله. وقد رأى كانط أنه ببحثه في العقل المحض هذا كان قد قدم لهذا العقل أورغانوناً يمثل مجموع المبادىء التي بموجبها يمكن للمعارف القبلية المحضة أن تكتسب أو تقوم، وجعل التطبيق المفصل لهذا الأورغانون يعطينا سستاماً للعقل المحض. وما طرحه كانط لمعرفة هذا السستام بكل تفصيلاته السابقة أطلق عليه لفظة العلم وقد عرّف بمهمة هذا العلم وهي محاكمة العقل المحض ومصادره وحدوده ولهذا فلا يمكن أن يعد هذا العلم مذهباً بل "نقداً للعقل المحض وحسب"(*)... وإذا صح التعبير يمكننا اعتبار أن هذا الأورغانون أو السستام الذي ينتظم العقل سيكولوجياً ووجودياً وميتافيزيقياً هو بمثابة انتظام للذات وإطارها الثقافي وموروثها الإلهي، فلو لم يكن كانط قد وضع في باله هدف تنظيم المعرفة ولو لم يضع في باله

(*) نفسه، ص 54.

الميتافيزيقا البديلة ولاسيما بعد شكه بعلمية الميتافيزيقا التقليدية ولو لم يضع في باله الثبات والإطلاق لكان قد عبّر أدق تعبير عن نشوء الذات داخلياً بسبب علاقتها بالعالم الخارجي وأهمية نموها وتطورها من خلال هذه العلاقة... ولكنه لا يؤمن بالنمو والتطور.!

النتيجة أن العقل قد تحدد فسلجياً عند كانط بوجود استعدادت ثلاثة فيه هي بمثابة أعضاء كل منها يعبّر عن وحدة متماسكة الأجزاء ومترابطة العلاقات،وهذه الاستعدادات هي: استعداد لتقبل العلوم الفيزيقية والميتافيزيقية (العقل المحض)، وهنا الميتافيزيقا تمهد للعقل الثاني (العملي) الذي يوضح استعداد العقل للأفكار الأخلاقية، أما ملكة (الحكم) فتمثل الاستعداد الذي يربط بين الإثنين من خلال الذوق والجمال. وفي هذا المجال ظهرت قدرة كانط الفسلجية على تصوير العمل الذوقي والأخلاقي داخل العقل بعملية لعب بين الخيال والعقل أو بين الخيال والفهم تصويراً يدعو إلى الإعجاب بقدرته الخيالية الهائلة.

الفسلجة هي نمو وتطور

من المتعارف عليه أن الفسلجة هي توقيف البحث على عضو ما لرؤية مكوناته ووظائفه، لكن أن تكون الفسلجة نمواً وتطوراً فإنه لم يحدث إلا مع الفلسفة، ولكن ليس بعيداً عن

وضع عضو تحت المجهر لتحديد مكوناته ووظائفه ولاسيما إذا كانت خاصية هذا العضو هي النمو والتطور ولم يكن هذا العضو إلا العقل عند هيغل، حيث رأى هيغل في العقل خاصية تاريخية وهذه الخاصية يمكن أن ينضوي تحتها العقل العام والعقل الفردي، وربما كان السبب طريقة دراساته الفلسفية حيث كانت جميعها تاريخية والتي من خلالها اكتشف عقلاً عاماً يتقادم بالتطور من الأدنى إلى الأعلى ومن النسبي والمتغير إلى المطلق. ولكن لما كان الإنسان هو من صنع التاريخ وأنه جزء من التاريخ أو جزء من العقل العام فإن عقله لابدّ من أن يحوي نفس صفاته وهي النمو والتطور والإيمان بأهمية التاريخ. لذا فإننا إن بحثنا عن الصورة الفسلجية للعقل الفردي عند هيغل سنجدها تاريخية جدلية متغيرة ومتطورة، ومن ثم سيكون الكلام عن العقل متضمناً الاثنين العقل العام والعقل الخاص، الفردي.

بدءاً يسلك العقل مع هيجل طريقين: الأول، يمثل العقل الفلسفي والثاني، يمثل العقل غير الفلسفي، وهذا العقل ـ أي غير الفلسفي ـ يفهم ولا يعقل، فهو يعكس الرأي الشائع أو الحس المشترك الذي لا يفقه الحقيقة الباطنة للعالم وهو يعكس صورة للواقع سكونية وثابتة وهو ما يرفضه هيغل، ولهذا نجده قد عوّل على العقل الأول الفلسفي كونه العقل الحقيقي لمعرفة باطن العالم. ومن هنا نشهد تشريحاً فسلجياً

ينصب على هذا العقل بالذات وهو هنا قد وجد في الفلسفة الدواء لتحديد مكوناته ووظيفته.

فالعالم موضوع الفلسفة وبالطبع ليس العالم المعطى موضوع الحس المشترك بل العالم بتطوره التاريخي وبنمو منجزاته التي هي "ليست شيئاً معطى بل نتاج بصيرة فلسفية"[(54)]. فالفلسفة أضفت على العقل العقلانية فهو عقل يفهم ويعقل وهو عقل يحتوي على أهم خاصية وهي التغيير التي تمثلها القوة التاريخية الكامنة فيه.

وهيغل هنا يحاول أن يكشف عن خطأ كانط الذي على الرغم من فاعلية العقل معه إلا أنه لم يرَ أن "مقولات الفهم وأمر العقل العملي تخضع للتغيير"[(55)]. فالعقل قد طرحه كانط بصورته النهائية التي لا تقبل التغيير ومن هنا كان كانط أكثر فسلجية في بحثه العقل من هيغل، ولكن مع هذا نلمح أن الأخير قد خاض شوطاً كبيراً للتحقق من طبيعة هذا العقل فهو قد حاول أن يفهمنا أن كانط ترك البحث ناقصاً، ويمكن أن يكون العقل الذي طرحه كانط يماثل الفهم الذي يؤدي نفس عمليات التفكير الذي يسود الحياة اليومية بادراكه الكيانات المتناهية فقط والأضداد الثابتة، فيختفي معه الفكر

---

(54) ايكن، هنري، عصر الايديولوجيا ، ت:محي الدين صبحي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1982، ص 56.

(55) نفسه، ص 52.

الجدلي حيث يكون كل شيء أو كيان منعزلاً محتفظاً بهويته علانية حتى وإن دُمج مع شيء آخر. وقد برر هيغل هذا بأن إمكانية جعل العالم الظاهر يقينياً مباشراً هو الخوف من صراع الأضداد ولتوفير الإحساس بالأمان والراحة الذهنية. ولهذا جعل مبدأي التضاد والهوية يسودان هذا العالم لقدرتهما على توفير الثبات والعبودية. وكما قلنا: وجد هيغل إمكانية أن يكمل هذا النقص بأن جعل وضع عمل الفهم هذا ليس نهائياً، فمن هذه المرحلة يأتي دور العقل ويبدأ عمله في إدراك الوحدة الكامنة وراء هذه الأضداد على أساس أن القوة الدافعة للعقل هي استعادته للكلية، ومهمة العقل هنا هو زعزعة الثقة بسلطة الأمر الواقع وهدم أمان الحس المشترك كونهما لا يمثلان الحقيقة، لأن هدف العقل الباطن هو الحرية. وعليه إذا ما نظر إلى العالم سيجده عالماً من الحرية وليس العبودية. وبهذا الهدف يندمج العقل الحر مع العالم الموضوعي برفع التضاد عنه وعن كل الأضداد التي خلقها الفهم، بحيث تمتد عملية توحيد الأضداد إلى كل جزء من الواقع إلى أن ينظم العقل الكل بحيث لا يوجد أي جزءٍ أو كيان فردي[56] إلا في علاقته بالكل.

---

(56) راجع ماركوز، هربرت، العقل والثورة، ت: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1979، ص66-68.

الكلام السابق يكشف نقطة أساسية في العمل الفسلجي للعقل عند هيغل، فكلامه لم يؤشر على مقولات أو مبادىء قبلية أو ملكات فطرية كما هو الحال مع كانط، وهو لم يركز على مكونات العقل بقدر ما ركز على صفاته وخصائصه ووظائفه؛ وباتباع تشريح العقل عنده سنشهد تفصيلات لهذا الرأي، فهيغل قد نفى منذ البداية أي شيء يسمى ملكة أو قوة كامنة في العقل وأكد في موسوعة العلوم الفلسفية "أن الملكة مثل القوة... تجعل الروح مجموعة جامدة وميكانيكية ـ يقول ـ ولا يغير شيئاً في الأمر أن نستعمل بدلاً من تعبير ملكة أو قوة، تعبير فاعلية"[57]. فتعبير فاعلية يلائم توصيف العقل بل ويمثل العضو الأساس في بنية العقل وماهيته التاريخية؛ وبهذه الماهية والفاعلية يتخذ العقل طابع الدينامية والنمو لاسيما وأن العقل هو الحائز الوحيد مسبقاً على الحرية إن لم نتجاوز خطاب هيغل ونقول: إنها المقولة أو المبدأ (العضو) الأساسي في العقل. "فالعقل يفرض الحرية مقدماً أي يفرض القدرة على السلوك على أساس من معرفة الحقيقة والقدرة على تشكيل الواقع طبقاً لإمكاناته"[58].

---

(57) هيغل، فردريك، مختارات 2 ، من قبل الياس مرقص، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1978 ، ص 105.

(58) العقل والثورة، ماركوز، ص33.

يظهر تشريح هيغل للعقل أن مبدأ الحرية هو المبدأ الأساس للعقل كونه يتلائم مع كون العقل دينامياً ذا فاعلية دينامية نامية متطورة باستمرار. ومن الجدير بالإشارة أن النمو والدينامية لايحدثان بخط مستقيم ولكن وفق خاصية (عضو) جدلية للعقل يتحرك جدلياً وفقهاً حيث يسلم بالمتناقضات وصراعها متفهماً أهمية النقد وتجاوز الواقع المعطى إلى الباطن الحقيقي.

قد يصح القول بأن تشريح العقل عند هيغل يقودنا إلى شبكة معقدة من المفاهيم المتداخلة فالعضو الذي يسود العقل هو الفاعلية، والعضو الأكثر أهمية فيه هو الحرية كونه يفترض أعضاء أخرى ذات خاصية دينامية كالجدل وصراع المتناقضات، النقد=السلب. . . وكلها أساسية من أجل فهم العالم فلسفياً. فلكي يكون الجدل قائماً يجب أن نسلم بأهمية السلب (negation) في تشكيل الواقع الحقيقي؛ فماهية السلب رفض وإنكار لما هو قائم، والإقرار بالمتناقضات يعني أن السلب دينامي ويتطور كونه يتغذى على المتناقضات، فكل شيء يحوي نقيضه في داخله وهذه الدينامية مستمرة سعياً وراء مركب أشمل يزول باستمرار مع ظهور نقيضه. هذه الصورة يرسمها الجدل العضو البارز في العقل، ووفقاً لهذا الخط من المسار العقلي يقترح العقل منطقاً يلائمه يختلف عن المنطق القديم وهو المنطق الجدلي "فالمقولات الجدلية

على عكس المنطق التقليدي تشيّد عالماً مقلوباً يبدأ بهوية الوجود والعدم ويختم بالمفهوم أو الفكرة بوصفها الواقع الحقيقي"[59]. هذا ما يوضح النسق العقلي الذي ينسجم مع خصائص العقل الذي يتألف من المفاهيم وهو قد وضع في باله منذ البدء بأن "الفلسفة لا تصير إلى العلمية مالم تسكن إلى المفهوم بما هو اسطقسها الأوحد وهي لا تنتظم علماً إلا عبر الحياة الخاصة التي للمفهوم"[60]. وإننا أمام العقل نكون أمام هيكليةِ أو نسق متكامل من المفاهيم وإنه وبسبب اجتياح التاريخ لكل شيء رأى هيغل أن هذا العقل يتكون من خلال العالم وتاريخه، فالعقل بسمته الجدلية ليس "هو الذي اخترع هذه المحتويات بل هي قد انضافت إلى المفاهيم خلال التراث الطويل للفكر والعقل وكل ما يفعله الفكر الجدلي هو أنه يجمعها ويعيد تنشيطها"[61]. ولا شك أن هذه المحتويات التي اعتبرها هيغل حقيقية أنها بنظره واقعية ولكن ليس كالواقعية المتعارف عليها، لأن العيني معه لايمثل الجزئي الذي هو تجريد بل الكلي هو الذي يمثل الواقع، وعليه

---

(59) المصدر السابق، ص 140.

(60) هيغل، فردريك، فنومنولوجيا الروح، ت:ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2006 ، ص 86.

(61) العقل والثورة، ص 22.

"فالعقل هو الإيقان من كونه واقعاً"[62]. وهنا يطرح هيغل شبكة مفاهيمه في تشكيل العالم حيث يحيك السلب والإيجاب ظواهره، فالسلب إذا كان يُفهمنا أن كل شيء مرتبط بضده فإن الإيجاب يشكل الكلي. ووفقاً لهذه الشبكة التي يتخللها الجدل النامي يكون للعقل بوصفه فكراً حراً وظيفة خلق العالم من خلال تصحيح أخطائه، أي العقل. وهكذا نجد أنفسنا نخوض في خريطة فسيولوجية للعقل لا تلامس الواقع إلا باستعلاء. فالواقعي يدل على ما هو معقول والمطلق هو الحقيقة العينية الوحيدة. وهكذا نشهد مع هيغل تشييداً لنسق من المفاهيم من أجل إبراز مكونات العقل ونشاطاته وفعالياته ولأجل إبراز المعرفة العقلية، كما شهدنا أن هذه المفاهيم التي تشكل محتوى العقل لم تكن لو لم يكن للعقل أعضاء تساعده على فهمها.

ففسلجة العقل عند هيجل تدعونا إلى تأمل صوره وأجزائه المؤلفة من الحرية والدينامية والجدل والنقد (السلب) والتناقض وهي مفاهيم بمثابة مبادىء أولية يجب أن يمتلكها العقل الفلسفي من أجل التعرف إلى نسق نظام العالم. ومن هنا أصبحت فكرة تشريح الأفكار مهمة، والدليل تشريحه

---

(62) فنومنولوجيا الروح، ص 309.

لفكرة المطلق وتجسداته وفكرة الثلاثية التي تسير على الفكر والوجود وغيرها. فالعقل مع هيغل عقل دينامي متحول كانت بدايته مع حلول الوعي في الطبيعة، وإنجازاته التاريخية هي التي حددت محتوياته ومفاهيمه، وهذا بخلاف الفلاسفة الذين بحثوا عن ما يجعل العقل ثابتاً ساكناً محدوداً بأعضائه. فالعقل لا يولد وفيه المبادىء والمفاهيم الفطرية بل أنه يحوز على هذه المفاهيم والمبادىء من خلال نموه وتطوره عبر التاريخ. فالعقل يتشكل تاريخياً ويبقى مفتوحاً على التشكل الأكمل بفعل مكوناته التي اكتسبها كالحرية والجدل والتناقض والنمو والتطور.

النظرة العلمية للدماغ
وتداعياتها على الفلسفة

فسيولوجيا العقل علمياً

إن جهد الفلاسفة السابق كان نقطة جذب للعلماء فقد حفزهم على وضع مفهوم العقل في الصورة وعدم إهمال التساؤل كيف ولماذا نعي؟ كيف ولماذا نعرف؟ كيف ولماذا نفهم؟... إلخ ولكنه ترك هذه التساؤلات وصورة العقل إلى أن حفزها سلوك بحثي علمي فُتح الباب أمامه للكشف عن كل فضول علمي يتعلق بالعقل.

كانت هذه الأبحاث ترتكز على عضو أساسي في الإنسان وهو الدماغ، ولعل طرقاً تشريحية لهذا العضو ورؤية فسلجية لصورته تطرح الإجابة عن التساؤلات السابقة وغيرها من أعمال العقل والتي تهدف إلى تقديم صياغة جديدة للعقل تنسب العقل بأعماله (أعضائه) إلى الدماغ.

إن دراسة تشريحية لتشكيلة العقل تضعنا أمام رؤية جديدة للعقل (مادية) وتكشف عن مسبب العقل وليس العقل نفسه، فمسبب العقل هو الدماغ وكل ما يتعلق بالعقل هي نتائج

للدماغ. وهي صورة قريبة إلى ماطرحه هوبز وداروين وهكسلي قبلاً، الذين فهموا أن للمادة وظيفة، وهذا يتجسد في المادة الأكثر تعقيداً وهي الدماغ. فتعقد المادة ينتج الوعي... والدخول في تفصيلات هذا الموضوع يجعلنا نحدد له طريقين: **الأول**، تشريح الدماغ أو بحث الصورة الفسيولوجية له، والثاني، الإجابة عن السؤال كيف ينبثق العقل من الدماغ؟ وهو ما سنتناوله في ما يلي:

مجال فسلجة الدماغ

إن مجال معالجة الدماغ فسلجياً هو مجال العلوم العصبية والعلوم النفسية. وتمثل العلوم العصبية "الحقل الذي يتعامل مع البنى العصبية والوظائف العصبية والتطور العصبي وعلم الجينات والكيمياء الحيوية والفيزيولوجيا وعلم الأدوية إضافة إلى علم الأمراض العصبية الذي يطلق عليه أيضاً اسم البيولوجيا العصبية، حيث يندرج ضمن الطب ويدرس الظواهر المخية"[63]. وبالطبع، فإن القدرة على التوصل إلى صورة فسيولوجية عن الدماغ قد أخذت وقتاً طويلاً، فمنذ خرق ستار البيولوجيا بدأ التفكير بظواهر كانت مستحيلة.

---

(63) العلوم العصبية، من ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

فالتطور العلمي الذي حدث مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كان قد شمل الفسيولوجيا أيضاً، حيث بدأ الاهتمام في هذه الفترة بالجهاز العصبي وباتت التساؤلات عن بنيته ووظائفه تحتل مساحة واسعة، فجهزت أدوات علمية متقدمة كالمجهر الميكروسكوب والمبصار المزدوج الستيريوسكوب، وكان أول من تجرأ ووصف الدماغ هو عالم التشريح والأجنة الألماني روبرت ريماك (1815-1865) عندما كشف (العام 1833) عن البنية الخلوية للمادة الرمادية للمخ، وبالطريقة نفسها تمكن العالم الألماني كرستيان غوتفريد أهرنبرغ (1795- 1876) من رؤية الخيوط التي تتكون منها المادة البيضاء في هذا الجزء من الجهاز العصبي. وتواصل البحث في هذا المجال إلى أن استطاع عالم الأعصاب الاسكتلندي تشارلز بيل (1774-1842) والعالم الفيزيولوجي الفرنسي فيليب ماغندي (1785-1855) من التمييز بين الأعصاب الحسية والأعصاب الحركية. ولكن نقطة التحول كانت مع العالم الفيزيولوجي بيير فلورنز (1794-1867) الذي تبيّن له من خلال تجاربه على نشاط الجملة العصبية المركزية ان نصفي الكرتين المخيتين يتوليان القيام بالعمليات المعرفية، أما المخيخ فتتمثل وظيفته في إحلال التوازن للجسم والتنسيق بين الحركات، بينما تتولى البصلة السيسانية المهمات الحيوية كدوران الدم والتنفس.

ورغم كل هذه التجارب لم يكن قد تمّ الكشف بعد عن العمليات التي تجري داخل النسيج العصبي.

وبدأت محاولات جديدة في المجال نفسه ارتقت إلى خطوة مهمة للوصول إلى تعيينات جدية لوظائف الدماغ. فمحاولة العالم يوهان موللر (1801-1858) طرحت نقطة أساسية هي: مبدأ الطاقة النوعية للأعصاب. وحسب هذا المبدأ فإن ظاهرة الحس تنشأ عن إثارة أعصاب العضو المختص. فالرؤية هي نتيجة إثارة أعصاب العين، والأذن كذلك وهكذا. فمبدأ موللر قائم على أساس نظرته إلى أعضاء الحس باعتبار أن كلاً منها يؤلف نظاماً أو نسقاً متميزاً عن سواه ومشحوناً بطاقة خاصة(*). وتوالت الأبحاث ولسنا في معرض استعراض تاريخي لهذا العلم لكن من المهم أن نشير إلى النقطة الفاصلة التي حددت الطريق نحو رؤية الدماغ فسلجياً بصورة جدية، ففي (العام 1933) استطاع عالم الأعصاب الكندي وايلدر غريفز بنفيلد (1891-1976) أن يعلن عن تبعية العقل للدماغ حيث "اكتشف بمحض الصدفة أن تنبيه مناطق معينة في الدماغ بالكهرباء... يحدث استرجاعاً فجائياً للذاكرة عند المريض الواعي...ولاحظ ان ملامسة المنطقة الخاصة بالنطق في الدماغ تؤدي إلى فقد مؤقت

(*) معلومات بتصرف من علم النفس في القرن العشرين منتدى وزارة التربية والتعليم من الانترنت.

للقدرة على الكلام. وقد استطاع بنفيلد بعد ذلك أن يرسم خريطة كاملة تبيّن مناطق الدماغ المسؤولة عن النطق والحركة والذاكرة والعواطف والحواس الداخلية والخارجية، غير أنه لم يكن من المستطاع تحديد موقع العقل أو الإرادة في أي جزء من الدماغ"[64].

تشريح الدماغ

الكلام السابق كان المدخل إلى تشكيل الطريق نحو البحث في ثنايا الدماغ من أجل العثور على الإجابات التي طالما أرّقت الفكر الإنساني. وهذا الطريق بدأ بالخطوة العلمية الواثقة من قبل علمي النفس والأعصاب عندما أعلن أن الدماغ وهو الجزء الأمامي للجهاز العصبي يمكن أن يمدنا بصورة تصور الدماغ مكوناً من أقسام أو بالأحرى أعضاء هي المخ، والمخيخ، والمهاد، ومنتصف الدماغ، والبصلة.

والمخ هو "واحد عند جميع الكائنات الحية يتكون من نيورونات (خلايا عصبية) تشكل أساس التفكير وتتحكم في السلوك"[65]. وهو "يقع في أعلى الرأس ويتكون من قسمين

(64) علم الأعصاب، ويكيبديا الموسوعة الحرة.

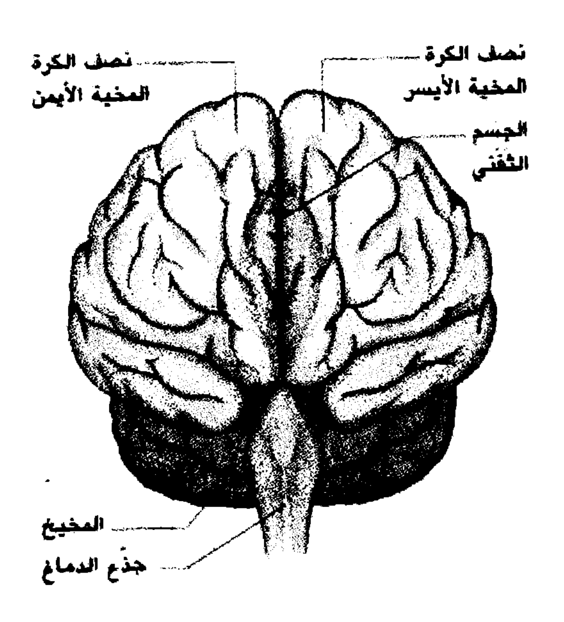
(65) كرستين، تمبل، المخ البشري، ت:عاطف احمد، عالم المعرفة، الكويت، 2002 ، ص 11.

متشابهين يفصل بينهما الفطر المركزي. وكل قسم يهيمن على الجهة المعاكسة من الجسم. ويتصل كلا القسمين بحزام يسمى الحزام الثفني رابطاً إياهما بما تحتهما من ساق الدماغ والمخيخ... ولكلٍ من فصي المخ الأيمن والأيسر فصوص عديدة منها: الفص الجبهي والفص الصدغي والفص الجداري والفص القفوي. ويرتبط المخ بالمخيخ عبر المهاد ومنتصف الدماغ لكنه معزول عنهما بغشاء سميك يسمى الخيمة لها فتحة وسطية ليقع عبرها المهاد ومنتصف الدماغ"[66]. وفي الجزء الأسفل "من جذع المخ يوجد النخاع المستطيل، وفوقه يوجد الجسر وخلف الإثنين يوجد المخيخ. والمخيخ هو جسم بصلي يتكون من نصفين كرويين متميزين كل منهما يتحكم في النشاط العضلي للجانب نفسه من الجسم. ويمكن تقسيم المخيخ إلى ثلاثة أجزاء ذات وظائف مختلفة هي: المخيخ البدائي وهو أقدم أجزاء المخيخ من حيث التطور النوعي وهو يتلقى مثيرات دهليزية خاصة بالتوازن من الأذن

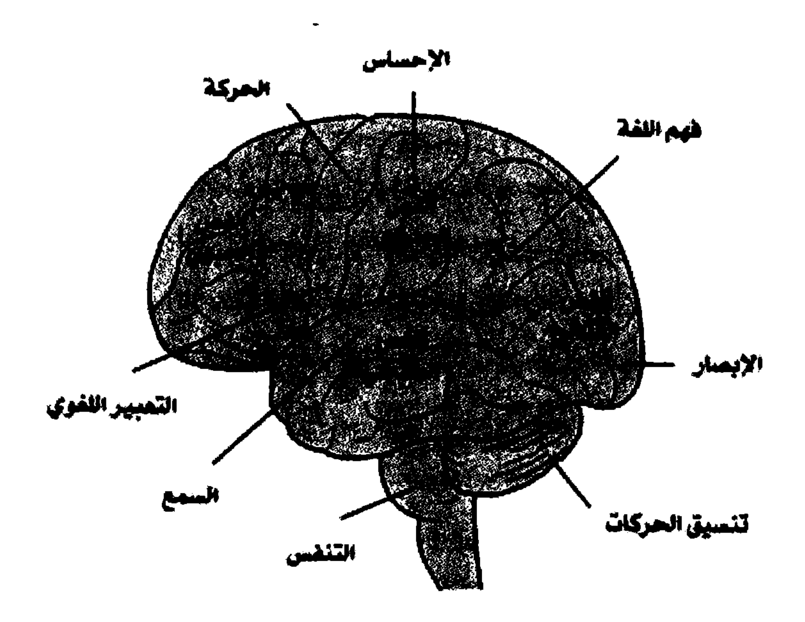
---

(66) راجع علم نفس النمو، د. محمد عودة الريماوي، دار المسيرة، عمان، 2003، ص184، وتربويات المخ البشري، د. محمد عبد الهادي حسين، دار الفكر، عمان، 2003، ص 39، وعلم النفس العام، تحرير محمد عودة الريماوي، دار المسيرة، عمان، 2004، ص 141-142 وطارق، ابراهيم حمدي، الدماغ البشري، الموسوعة الصغيرة، بغداد، 1980، ص 10-11.

الداخلية ويساعد في المحافظة على التوازن والاتزان... والمخيخ القديم وهو يتلقى معلومات عن الإحساس بالضغط واللمس من العضلات والأوتار مما يساعد على الاحتفاظ بوضع الجسم الطبيعي وعلى القيام بالحركات الإرادية، والمخيخ المستحدث وهو يرتبط بالحركات الإرادية الدقيقة"[67]. وبالرغم من هذه التقسيمات فإن عمل الدماغ هو عمل جماعي وهو أمر يثير التساؤل إذ كيف يتم الترابط في أجزاء وعمل الدماغ ككل؟؟

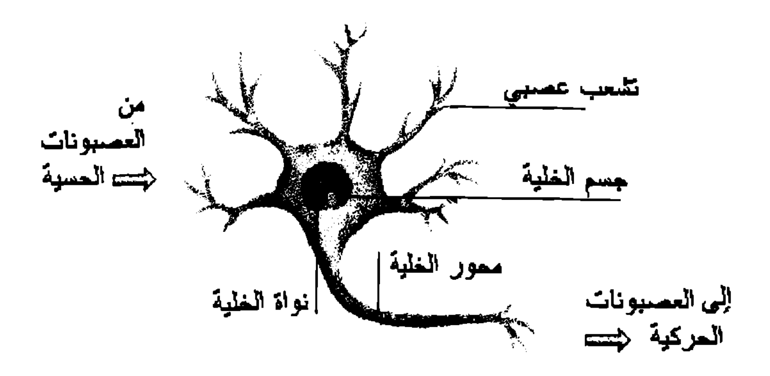


(67) كرستين، المخ البشري، ص 18-19.



لا شك أن علماء الأعصاب ـ وبما أن ميدان عملهم الأعصاب ـ قد أمدونا بالجواب فالدماغ يتألف من عشرات المليارات من الخلايا العصبية وترتبط العصبية الواحدة أحياناً مع الآلاف من الأعصاب المجاورة لها. فكل عصبة هي خلية تتفرع منها "زوائد مغزلية تسمى شجيرات عصبية تتلقى الاستثارة من النيورونات الأخرى"[68].

(68) كرستين، المخ البشري، ص 12-13 وكذلك علم نفس النمو، ص 189، وعلم النفس العام، الريماوي، ص 120.



وقد يتأثر التوصيل العصبي الصادر من خلية عصبية بالمحاور عن طريق الاشتباك إما بربوة المحور أو مع نهايات المحاور الأخرى. والثورة التي حدثت في دراسة الموصلات العصبية كانت مع اكتشاف أن الببتيدات التي هي أجزاء من سلاسل بروتين الأحماض الأمينية يمكن أن تعمل كموصلات عصبية، فالنيورون بإمكانه إفراز عدة ببتيدات مختلفة. فبدلاً من إفراز مركب كيمياوي واحد في المشبك العصبي نجد أن خليطاً من الموصلات العصبية قد جرى إفرازها. وتلعب سلاسل الأحماض الأمينية داخل الببتيدات، فضلاً عن استثارة سلسلة من الأحداث المستمرة والتأثيرات التنشيطية المباشرة، تلعب دوراً مهماً في الشيفرة الوراثية التي تحدد كيف ينمو المخ. ولعل التوصيل العصبي عبر الشجيرات يجعل عمل الدماغ مترابطاً متماسكاً ومتكاملاً فلا يوجد عائق يمنع

وصول التنبيه العصبي من أقصى حجيرة فيه إلى ابعد واحدة عنها[69].

أعمال الدماغ الخطوة نحو تشكيل العقل

إن العمل الأهم في الدماغ هو فعل التفكير. وقد رأى الباحثون أن حجم الدماغ يلعب دوراً أساسياً في هذا المجال، حيث لاحظوا بأن القشرة الدماغية في الإنسان هي أكثر تعقيداً مما هي لدى الحيوان. والعنصر الأساسي في هذا التعقيد يأتي من الزيادة في الحجم[70]، وهذا ما أثبته علماء التطور قائلين: إن "اتساع القحف في الإنسان وزيادة حجم دماغه مرتبطان بقدرته على التفكير وذاكرته الحادة وسعة وشدة إدراكه ومخزونه من المشاعر وتعلمه ومرونة الاستجابة واستعمال اللغة"[71]. وإنه رغم اتساع القحف في الإنسان إلا أن سطح القشرة الدماغية قد كبر إلى درجة أنه بدأ ينثني على نفسه حتى يتلائم وحجم الجمجمة. ويبدو أنّ العامل الحاسم

---

(69) راجع كرستين، المخ البشري، ص 12-17 وكذلك الدماغ البشري، طارق، ص 19.

(70) راجع كرستين، المخ البشري، ص 23.

(71) سفج.جي.ام، التطور، ت: ساهي جواد ضاحي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق، الموصل، 1985، ص204.

على القدرة العقلية هو نسبة حجم القشرة المخية وليس الحجم الكلي للمخ، فالمخ لدى الفيل مثلاً، أكبر من مخنا ولكننا أذكى... والآن إذا كان فعل الدماغ الرئيسي يكمن في التفكير فكيف تتم أعماله فسلجياً؟

نقول إن الباحثين استطاعوا حصر عمل الدماغ في قسمين:

الأول، عمل على "المستوى السفلي وهو ما نشارك فيه الحيوان كالوعي واليقظة والمنام والغرائز، كالجوع والعطش والجنس وكذلك التحسس بالحرارة والبرودة والألم والحركة وهذه الواجبات الحيوانية تقع ضمن مسؤولية ساق الدماغ؛

والثاني، عمل على المستوى العلوي وهو ما يختص به الإنسان كالذكاء والفطنة ولغة الكلام والقدرة على التطور وهذه الواجبات تقع تحت مسؤولية قشرة الدماغ التي لا يمكنها أن تعمل مالم يكن المستوى السفلي قائماً بعمله بصورة سليمة بالرغم من هيمنة القشرة على الجميع"[72].

إن هذا التفسير يعطينا صورة لعمل الدماغ ككل، ونحن قد عرفنا سابقاً بأن للدماغ أجزاء يتكون منها ويجب أن نفهم أن لكل جزء وظيفته أو عمله. فوظيفة تعيين الأحاسيس مثلاً

(72) طارق، الدماغ البشري، ص 28 وكذلك علم النفس العام، ص 143.

تعزى إلى فصوص الدماغ كون المستلمات الحسية تتمركز في قشرة الدماغ التي تحوي الفصوص الأربعة، حيث يكون دور الفص الصدغي بمشاركته مع الجهاز الحافي القيام بعمل الترابط بين الأحاسيس وربطها بالذاكرة والعاطفة وكذلك لإرسال إشارات الفعل اللازم حولها. هذا ما نجده عند الحيوان أيضاً، لكن مايميز الإنسان هو الدور الرمزي بتحويل المستلمات إلى رموز كلامية وأفكار. أما الفص الجبهي فمهمته ربط الماضي بالحاضر من الخبرات الماضية(*)، وأهمية الفص القفوي تكمن في تحديد المعلومات البصرية المرتبطة بالأنماط المختلفة لشدة الضوء والألوان الناتجة من الانتظامات البصرية التي تدخل العين. أما الفص الجداري فالذي يعزز وجوده هو نظام متكامل للتعرف إلى الأشياء بصورة مستقلة عن زاوية النظر إليها مثل: متى وكيف نستخدم الأشياء؟... إن الفصوص الأمامية تكون عالية التطور حتى إنّ البعض يعتبر أنها تحتوي على أكثر قدراتنا الإنسانية وهي تشارك في التخطيط والتنظيم وأنظمة التحكم ذات المستوى التنفيذي العالي(**). وهكذا، ولما تقدم من تشريح للدماغ تمت الإشارة إلى تخصصات متعددة حسب الأجزاء دون أن

(*) انظر طارق، الدماغ، ص 29-30.

(**) انظر كرستين، المخ، ص 47-58.

يُحدد مكان العقل بالذات ولكن ـ حسب الكلام السابق ـ يمكن القول إن الفصين الصدغي والجبهي هما المسؤولان الرئيسيان عن تشكيل العقل هذا طبعاً، من دون أن ننسى الفصين الآخرين القفوي والجداري، وهذا الكلام يعني أن الدماغ قد فاق كونه جهاز سيطرة فهو قد تجاوز نفسه وخلق عالماً ميز الإنسان عن غيره وهو عالم العقل. وينبغي أن لا ننسى هنا وحدة الإنسان الجسمية من حواس ودماغ وكذلك أن لا ننسى هدف التكيف مع البيئة الذي جعل بدوره ذلك العضو المعقد لا أن يتكيف مع البيئة بصورة ستاتيكية كالأعضاء الأخرى وحسب، بل وأن يتجاوزها بطريقة إعجازية تعجز الطبيعة عن أن تقدم نفسها بالشكل الذي يقدمها العقل عنها بواسطة الوظائف العليا للدماغ البشري، الوظائف التي تبدو غير قابلة للرؤية ولا للتجسيد بل هي تتجسد من خلال أدوارها وسلوكها حيث شكلت خاصية الإنسان الأساسية العقل. فالعقل هو وصف لهذه الوظائف وعلينا أن لا ننسى هنا دور الحواس، فالوعي لا يمكن أن يكون من دون الإدراك والإدراك لا يتم من دون الحواس والحواس هي خمس وتسمى بالمحللات وهي التي تستلم التنبيهات من البيئة الحسية على هيئة رسائل عصبية تتنوع بتنوع الحواس، فهناك رسائل عصبية بصرية وسمعية... إلخ وهي عملية يشترك فيها الإنسان والحيوان، لكن الإنسان يتميز

بكونه على وعي ودراية في تصنيفها وتحليلها[73] . فوفقاً لتشكيلة الدماغ الفسلجية وأعمالها يكون الوعي لما يدرك والذي على أساسه يتكون التفكير. فالإدراك الحسي هو الذي يمد التفكير بمحتواه حتى المجرد منه كون "الإدراك الحسي ليس حسياً صرفاً. . . إذ هو منطلق التفكير المجرد"[74].

مساعدات تشكيل خريطة التفكير فسيولوجيا

هنالك مراحل طويلة وعديدة يبدو أنها على وعي في تحديد هدف تشكيل دماغ يعي ويفكر. أولها ألمحت إليه نظرية التطور: فلما بدأت قامة الإنسان بالانتصاب كان قد بدأ بتحرير أطرافه الأمامية مما أفاده في الاستعمالات غير الحركية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فأهم ما تحرر مع انتصاب القامة هو الفم كونه العضو الأساس لاستخدامه في عمل الأصوات؛ وإجمالاً "إن الرأس المرفوع المحمول بعيداً عن الأرض أصبح مركز الاستلام الحسي والنشاط التصوري والاتصال الاجتماعي ليفتح آفاقاً جديدة وإمكانات تطورية"[75] ؛ هذا فضلاً عن اكتسابه الرؤية الملونة ذات

(73) راجع جعفر، اللغة والفكر، ص 6.

(74) المصدر السابق، ص 4.

(75) التطور، سفج، ص 205.

الأبعاد الثلاثة التي ساعدته على اتساع أفقه وتشجيع التصورات الجديدة لبيئته مما أسهم بدرجة كبيرة في زيادة إدراكه. ولعل سعة الأفق آتية من كونه قد اكتسب بفعل مزاياه الإنسانية ملكات عقلية كالتخيل والذاكرة، فالذاكرة جعلت له تاريخاً بمعنى أنها قادرة على "ترتيب الأحداث الماضية زمنياً من حيث صلتها بتجارب أخرى ماضية"[76] مكنته من أن يستفيد من تجاربه السابقة والذاكرة تتركز في عضو الدماغ المتمثل بـ "المخ الأوسط وتوجد أيضاً في المنطقة الصدغية وأيضاً الجبهية من القشرة الدماغية"[77] ، حيث تطبع الذكريات " كرموز على المستوى الحجري (النورميني). . . وحيث يعتبر حامض النوية ـ الخلية ـ هو المسؤول عن عمل الرموز وفكها"[78] ؛ ولعل أيّ تلفٍ في مناطق الذاكرة يؤدي إلى تأثر الذاكرة وتشوشها. فالعقل إذن، يتميز بحس تاريخي يتعلم منه الدروس التي تساعده على النظر إلى المستقبل بحكمة والتآلف مع البيئة وتطويعها. هذا إضافة إلى الخيال الذي يعتبر أداة تنشيط الفكر بابتكار الأفكار وتركيبها من خبرات ماضية أو مبتدعة أو مستنبطة أو محدوسة... إلخ

---

(76) اغروس، روبرت وجورج ستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ت: كمال خلايلي، عالم المعرفة، الكويت، 1989، ص 32.

(77) كرستين، المخ، ص 130.

(78) طارق، الدماغ، ص97.

والخيال هو "من أفعال قشرة الدماغ بصورة خاصة والدماغ برمته بصورة عامة"[79] . ويبدو أن هاتين الملكتين وفرتا الاستعداد لتسلم الجديد كالقدرة على خلق اللغة واستيعابها للتعبير عن الأفكار مثلاً، التي تشكل أساس تكوين الوعي.

اللغة أساس الوعي

"إن اتساع القحف في الإنسان وزيادة حجم دماغه مرتبطان بقدرته على التفكير، وبذاكرته الحادة، وسعة وشدة إدراكه ومخزونه من المشاعر وتعلمه ومرونة الاستجابة واستعماله اللغة"[80]. ولعل نشؤ اللغة وتطورها لم يكن مستطاعاً إلا بعد أن بلغ الدماغ عند الإنسان وجهاز الصوت عنده وحاستا السمع والبصر درجة معينة من الارتقاء، حيث "عملت ظروف العيش الآخذة بالتطور على تحسين الأسس الفسلجية المخية للكلام... وهذه عملت بدورها إيجابياً على تحسين المخية الكلامية وفي مقدمتها الفصان الجبهيان والفصان الجداريان"[81] ، هذا بالإضافة إلى الفصين الصدغيين اللذين تقع فيهما منطقة تسلم الصوت وتسمى منطقة

---

(79) نفسه، ص 96.

(80) سفج، التطور، ص 204.

(81) جعفر، اللغة، ص 57.

الكلام المسموع، "أما المنطقة الجبهية الدنيا من المخ فهي مسؤولة عن الكلام المتحدث به، فالفصان الجبهيان الموجودان في القسم الأمامي الأعلى من القشرة المخية، إذن، يمثلان مراكز الكلام، أما إدراك اللغة وفهمها فإنه يحتل المواقع الخلفية للمخ"[82] ، وهذه المراكز تقع على الجهة اليسرى للمخ حسب ما أعلنه عالم اللغة الفرنسي بيير بروكا (1824-1880) بمقولته الشهيرة "نحن نتحدث عن النصف الكروي الأيسر للمخ"[83] . ولاشك أن التطور قد حصل أيضاً، مع العضلات اللفظية التي باتت بمرور السنين تحت "إمرة المراكز العصبية المنظمة التي تناغم التعليمات التي تتلقاها من الإحساسات الخاصة بالعضلات في أطوار تشنجها"[84] . وعليه يكون القسم الأيسر للمخ والعضلات اللفظية مهيئين لفهم اللغة لاسيما وأن الإنسان قد جهز أيضاً بالمستلمات (الحواس) التي تنقل الظواهر المستلمة إلى أمكنتها المحددة من الدماغ ولاسيما مناطق الكلام، فالعصب المخي السمعي مثلاً ينقل الكلمات المسموعة إلى المركز

---

(82) راجع كرستين ، المخ، ص 85.

(83) نفسه، ص 91.

(84) شوشار، بول، اللغة والفكر، ت: صلاح ابو الوليد، منشورات ماذا أعرف، بدون سنة، ص 54.

اللغوي المختص بالكلمات المسموعة وليس إلى المركز الحسي السمعي العصبي عموماً، ويقابله العصب الحسي البصري الذي ينقل الكلمات المقروؤة المرئية إلى المركز المخي الكلامي البصري وليس إلى المركز البصري عموماً، ذلك أنه في المركز السمعي والبصري العصبيين أمكنة محددة للغة والكلام. وهي كما قلنا موجودة في الفصين الصدغيين اللذين يقعان في القسم الأمامي الأعلى، من القشرة المخية. وقد أثبتت الدراسات الحديثة تأثير النشاط العصبي لهذا القسم العلوي من القشرة الدماغية الذي يمثل الحياة العقلية في النشاط العصبي الأدنى الذي يمثل الحياة الانفعالية، حيث هنالك "تأثير متبادل بين النشاط المخي اللغوي... وبين النشاط المخي الحسي الذي تشترك فيه مع الإنسان الحيوانات الراقية الأخرى من جهة، وبين النشاط العصبي الأدنى من جهة أخرى"[85]... إذن، الدماغ مهيأً لإنتاج اللغة بل وأنه قد طور الأصوات أيضاً، فالجهاز العصبي تطور على نحو يجعل الأصوات أيضاً تتطور. فجاكبسون عندما لحظ "التغييرات الفارقة التي تنتج من الملامح المميزة كان قد أشار إلى أننا نستطيع التمييز بين (sleep) و(slip) كون الدماغ مهيأً لتنظيم الأصوات في فئات فونيمية، فهو لا يقوم بتحليل اللغة من

(85) جعفر، اللغة، ص 39.

حيث هي تدفق مستمر من المدخلات السمعية بل يعطي تأويلاته للإشارات التي يسمعها"[86].

ويبدو أن الدماغ قد أصبح أكثر رقياً عندما تعلم الكتابة ما يعني وجود "مناطق جبهية جديدة وجمجمية جدارية جديدة أيضاً والقراءة تعني فهم الخطوط وحركاتها وإدراكها الأمر الذي يقودنا إلى القراءة، ولاشك أن القراءة تستوجب وعياً مسبقاً ينطلق من عضلات العين التي تؤدي إلى تقويم الأشكال على المستوى النظري"[87].

يتبيّن مما سبق أن اللغة هي العمود الفقري للتفكير وأنها تجسيد لعالم العقل كون التفكير والعقل يصوغان عالمهما باللغة. فاللغة هي أداة التفكير لصياغة أفكاره وأداة العقل لتوجيه فعالياته؛ فالوعي يمثل "الفكرة المحررة لفظاً والوعي عند الإنسان يعني التسمية وأن كل ما يخضع لقوانين النظام الأول المشابه للفكرة الحيوانية لا يصبح كامل الوعي إلا إذا انتقل إلى النظام الثاني مقولاً وفق قانون اللغة الخارجية الذي تعلمنا كيفية استعماله للتعبير عن فكرنا"[88] . ويشير شوشار إلى مسألة أساسية وهي أن الحقل اللغوي لا يتسم بالوعي

---

(86) كرستين، المخ، ص 87-88.

(87) انظر شوشار، اللغة، ص 57.

(88) نفسه، ص68.

فقط، فنحن نفكر دون أن ندري وهنالك تعبير داخلي إضافة إلى وجود حيز كبير من أفكارنا يبقى لاواعياً. فاللاوعي إذا لم يخضع للفظ فهو يخضع للتعبير ويصبح ملفوظاً، المهم أن الإنسان طالما بقي يفكر "وطالما بقي عقله يعمل فهو محافظ على إنسانيته أي متمكن من اللغة الداخلية حتى ولو كان عقله معتماً أو فقد نظام الإشارات الثاني سيطرته ونفوذه"[89]. فاللغة إذن، لا تقتصر على نشوء الأفكار بل على إدراكها وتداولها واللغة مرتبطة بالإدراك مما جعل القدرة على الخلق والابتكار من سمات الفكر الإنساني، وباللغة يكون الإنسان قد تخطى المؤثرات الحسية واستطاع أن يفهم معاني الرموز والدلالات كونه يستند إلى المنظومة الإشارية (اللغة) التي تجاوزت منظومة الحيوان الإشارية (الحسية). فمع اللغة بدأ النشاط العصبي الأعلى يرتقي إلى التعميم والتجريد اللذين بهما نرتقي إلى معاني الكلمات، وفسلجياً فإن الفكرة الجديدة أو المبتكرة تنشأ "عندما تقترن أو تتلقح أو تلتقي الارتباطات العصبية في المنطقة النشطة من القشرة المخية غير أن هذا الاقتران أو الخلق يحدث بشكل مفاجئ عند نضجه بين المراكز المخية اللغوية الموجودة في القسم الأمامي الأعلى

---

(89) شوشار، اللغة، ص 72.

من القشرة المخية، الأمر الذي يؤدي إلى اقتناص فكرة طرية أو صورة شعرية رائعة قبل أن تفر من الذهن، فيتم انبثاقها في حقل الفن بما فيه الشعر في حالة حدوث الاقتران العصبي بين المراكز المخية الحسية، وفي حقل العلم في حالة حدوثه بين المراكز المخية اللغوية. ويبلغ الصراع المخي أعلى مرتبة في الحالتين بين الخلايا المخية النشطة وبين الخلايا المخية التي ما زالت باهتة النور، وتظهر في مجرى هذا الصراع صفات مخية جديدة يجوز أن نسميها مخاض الإبداع الذي يتصف به العباقرة، وهي حالة خاصة من الصراع المرير الحاسم الذي يحصل بين المجاري المخية التي تحاول الاحتفاظ بها على نسق الصراع الذي يحدث بين عوامل دفع الجنين إلى خارج الرحم وبين عوامل الاحتفاظ به"[90]. وقد أورد بافلوف أن "الفكرة والانفعال جانبان متباينان للوعي أي لانعكاس الواقع الموضوعي في عقل الإنسان؛ فالفكرة من جانبها تعكس ما يحدث في العالم الخارجي من موضوعات وأحداث بصيغة لفظية، والدليل أن صدقها يتوقف على كونها إشارات لفظية تتطابق مع الموضوعات الخارجية التي هي انعكاس لها بعيداً عن المشاعر الذاتية للمرء، أما الانفعالات فالدور الأساسي لها

---

(90) انظر جعفر، اللغة، ص 108-.109

هو تقويم دلالة الموضوعات التي تعكسها الأفكار بالنسبة للفرد. وترتكز الانفعالات والأفكار والعلاقات المتبادلة بينهما على النشاط العصبي الراقي الذي هو حصيلة نشاط نظم ثلاثة: النظام الحسي ونظام الكلام ومركزهما اللحاء ونظام الأفعال المنعكسة غير الشرطية ومركزه منطقة ماتحت اللحاء"[91]. ويركز بافلوف ـ كما هو معروف ـ على الأفعال المنعكسة الشرطية فهي الوسيلة للتعميم الراقي لوظائف الكائن، فاللحاء المخي يوسع من التعميم الراقي كلما تكوّن فعل منعكس شرطي جديد.

بهذا الشكل نجد أن الإنسان قد أوجد له طريقة للتفكير جعلته ينتقل من الأشياء الخارجية إلى حياة العقل، من الحسي إلى المجرد وذلك بواسطة اللغة. فاللغة هي صورة الوعي والحضارات وقد جعلها نعوم تشومسكي عضواً، يقول: "إن ملكة اللغة يمكن اعتبارها بشكل معقول عضواً لغوياً بالمعنى نفسه الذي يتكلم به العلماء عن الجهاز البصري أو جهاز المناعة باعتبارها أعضاء جسمية؛ يفهم بهذه الطريقة أن العضو ليس شيئاً ما يمكن انتزاعه من الجسم تاركين البقية، إنه منظومة فرعية من بنية أكثر تعقيداً ونأمل أن نفهم

---

(91) انظر ويلز، هاري، بافلوف وفرويد، ت: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص160.

التعقيد الكامل بالبحث في الأجزاء التي تمتلك سمات مميزة وتفاعلاتها وأن دراسة اللغة تجري بالطريقة نفسها"[92]. وبالطريقة نفسها يمكن أن يكون العقل العضو الأكبر من تلك البنية المعقدة والتي تمتلك منظومات فرعية منها اللغة.

لا شك أن مصدر الحصول على التفكير واللغة قد تكشف خلال الكلام السابق حيث الشكل الفسيولوجي للدماغ وما يحويه من استعدادات وتطور الإنسان بالطريقة الشكلية الملائمة للتكلم والبيئة المحيطة به، حيث تقوى الاستعدادات البدائية الفسيولوجية وربما تبتكر استعدادات جديدة (أعضاء) حسب الوظائف الناشئة بفعل الحاجة والبيئة، إذن، عقل الإنسان يمكن رؤيته فسيولوجياً من خلال تصنيف قدراته إلى صنفين:

"**1- القدرات الفطرية ذات الأساس البيولوجي** وهذه تظهر مثلاً في سرعة تكوين الوصلات الانعكاسية الشرطية وهذه مشتركة بين الإنسان والحيوانات الراقية الأخرى لأن الشروط التشريحية متوافرة لنشؤ هذه القدرة.

2- القدرات الإنسانية الخالصة المكتسبة... معنى هذا أن علم النفس العلمي قد فقد وجهة النظر العقيمة التي تعتبر

(92) تشومسكي، نعوم، اللغة والعقل واللغة والطبيعة، ت: رمضان مهلهل سدخان، دار الشؤون الثقافية، العراق، بغداد، 2005 ص 19.

جميع أشكال النشاط العقلي وبخاصة الأكثر تعقيداً قدرات فطرية متحجرة"[93].

هذا الكلام الذي يشير إلى البيئة لاشك أنه يؤشر إلى عامل حاسم في رسم صورة العقل النهائية وهي التغلغل تاريخياً في العالم المحيط و الممارسة الاجتماعية، حيث تتحول الوظائف العقلية بالتدريج مع نمو الإنسان "الثقافي والجسمي إلى وظائف ذاتية داخلية أو سيكولوجية أو عقلية فردية"[94] ، كون الإنسان وبفعل التطور التاريخي يكون قد تخطى المؤثرات الحسية الخاصة به إلى النشاط العقلي؛ وإن النشاط الأخير سيصمم في صورة فسلجية للعقل لا يمكنها أن تتجاوز دور البيئة الاجتماعية الذي ينعكس في المنظومة الإشارية للغة. "فالتجريدات اللفظية تنشأ من خلال الممارسة الاجتماعية عن الإثارات الحسية المباشرة التي تشير إلى الواقع"[95] والإنسان وفقاً لمبدأ التطور يعتريه نموان: نمو طبيعي يشمل جسده ونمو ثقافي يشكل عقله؛ وقد عرفنا دور النمو التدريجي في تشكيل العقل وسنؤكد مع فيجونسكي صاحب الفضل في ابتداع مبدأ التطور التاريخي أن "النمو

---

(93) جعفر، اللغة، ص83-84.

(94) نفسه، ص100.

(95) ويلز، بافلوف وفرويد، ص 161.

الثقافي يمثل نمو الوظائف العقلية العليا التي لا تتطلب تغيراً في الطبيعة البيولوجية للإنسان... تتمثل الخاصية الأساسية للسلوك الثقافي في اختراع واستخدام أدوات العمل (الأعضاء المصطنعة للإنسان) وهذا يفسر لماذا يرتبط نمو الوظائف العقلية العليا بخلق أدوات سيكولوجية معينة تعدل الوظائف الأولية ويتمثل هذا النمو في الإشارات (الكلمات، الرموز، الرياضة، الخطط، الخرائط، الرسوم البيانية... إلخ) التي تؤلف الأدوات. وبمعنى آخر، الإشارات وسائط سيكولوجية للمثير ابتدعتها الكائنات الحية الإنسانية إضافة إلى موضوعات المثير التي تعمل خارج الإنسان"[96] . فخاصية الإنسان الأساسية المتمثلة بكونه اجتماعياً تجعلنا نفهم أهمية خلق الإشارات والألفاظ لكي يفكر عبرها وبالتدريج تشكل العقل.

كنتيجة فإن الصورة الفسلجية للعقل بعد الكشف عن الدماغ قد أخذت بعداً جديداً لا يعلن عن أعضاء جاهزة كما هو شغل معظم الفلاسفة، بل أنه قد أعلن عن العضو المسؤول عن تشكيل العقل وهو الدماغ. ومع هذا بقيت الطروحات العلمية غامضة في هذا الشأن، فالدماغ البشري معقد ومدهش والباب مفتوح لمعرفة الأكثر حوله... لكن

(96) فيجونسكي،ل.س، التفكير واللغة، ت:طلعت منصور، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1976، ص 13-14.

رؤية عضوية للعقل مع العلوم العصبية تأتي بتلك الصورة المستقاة من فعل التفكير لتطرح عناصر (أعضاء) لابدّ منها لتشكيل العقل وهي "الواقع المحسوس والحواس والدماغ والمعلومات السابقة"[97].

عود إلى الفلسفة: فسلجة الدماغ والعقل

اتفق الفلاسفة المعاصرون مع أبحاث العلم في أن الدماغ هو عضو التفكير وأن ما يسمى بالعقل = الوعي ناتج من الدماغ... لدرجة أن البعض قد اعتبر العقل وهماً يقول رسل: إنه تحت جراحة المخ بدا العقل "شيئاً فشيئاً في صورة ناتج جانبي تافه ينتج من أنواع معينة من الظروف النفسية"[98].

بل وقد شبهه الكثيرون بآلة ولاسيما عندما كان المناخ الفكري منشغلاً بالأبحاث الجديدة في مجال الكومبيوتر والإشعاع، فهذان المجالان وفرا إمكانية الاستعارة اللفظية والوظيفية لتصور الدماغ ووظائفه آلياً، وكثيراً ما سمعنا أن الكومبيوتر يمثل الذكاء الاصطناعي ومفردة الذكاء كما نعرف

---

(97) البدراني، هشام، العقلية الإسلامية، بناؤها وتكوينها ، بغداد، 1990، ص 21.

(98) رسل ،برتراند، العقل والمادة، ت:احمد ابراهيم الشريف، دار نشر الثقافة، الفجالة ، 1975، ص 189.

لصيقة بالعقل الإنساني، هذا فضلاً عن أننا نعرف أن الكومبيوتر صمم على أساس صورة الدماغ. . . بل ولتبرير أعمال العقل ومعالجتها نجد الكثير من الباحثين جعلوا من صورة الدماغ الشبيه بالكومبيوتر الذي ينتج المعلومات، جعلوا له إمكانية تفسير أعمال العقل. فالدماغ بدا لهم بمثابة لوح أو خريطة خلفية في الكومبيوتر وأنه بالاستجابة للأوامر أي الإيعازات والإشارات يعطي معرفة وهي تمثل العقل.

وفي أواسط الستينيات برزت استعارة أخرى أضيفت إلى تصوير الدماغ الكومبيوتري وهي تصوير الدماغ الهولوغرافي وهي صورة قدمها عالم الأعصاب كارل برابرام.

فلما شهد برابرام التحدي في كيفية نقل التعلم من عضو إلى آخر أمام مركزية وظائف الدماغ كان قد عاصر أمل الكثير من العلماء في إنقاذ نظرية التمركز بتقديمهم أحد التفسيرات الممكنة فافترضوا "أن الدماغ قد تطور ليحمي نفسه من النتائج وذلك بمضاعفة الوظيفة الواحدة مرة تلو أخرى، حتى إذا تحطمت منطقة واحدة يمكن أن تتولى الأخرى مهمتها وكأن كل ذكرى قد سجلت على عدة بطاقات وكل من هذه البطاقات قد حفظ في موقع مختلف... لكن توالي التجارب والشواهد الطبية قد أشر نحو نوع من زوال العمليات عن مواقعها عبر مناطق كبيرة من الدماغ وليس مواقع خزن منفصلة

لذكريات منفصلة"[99]. ولهذا رأى برابرام أن أكثر ما يصح على الدماغ من هذه الناحية هو التصوير الهولوغرافي، وهذا التصوير له من الأهمية ما يجعله يختلف عن التصوير التقليدي، فإذا كان الأخير يظهر الصورة مجزأة على اللوح بحيث يحتوي كل جزء من اللوح على جزء من الصورة وتجميع أجزاء اللوح يظهر لنا الصورة كاملة، فإن التصوير الهولوغرافي قد أتى بكشف مهم وهو أن كل جزء من أجزاء اللوح يحتوي على الصورة كاملة بحيث لو تعرض جزء واحد من اللوح للتلف فإننا سوف لن نفقد الصورة لوجودها في الأجزاء الأخرى، وهذا ما وجده برابرام مماثلاً "لانتشار الذاكرة وقدرتها على مقاومة ضرر الدماغ"[100]. فمثل هذا الجهاز إذن، يتعرف إلى الشكل ككل وليس بمناظرة الهيئات جزءاً بجزء. وهكذا فبالتأكيد أننا لا نرى الآخرين كعيون أو أنوف ولكننا نراهم في مجمل صورتهم، الأمر الذي جعله يتساءل، ألا يمكن إذن، أن "تكون هذه الطريقة نفسها التي يعين فيها الدماغ وجهاً بين الزحام أو أن يتعرف إلى مشهد عائلي في صورة فوتوغرافية"[101].

(99) بريجز، جون، الكون المرآة، ت: نهاد العبيدي دار واسط العراق، 1986، ص 191.

(100) نفسه، ص 192.

(101) نفسه، ص198.

ولكن نظراً لسمة الفلسفة النقدية لم يكتفِ الفلاسفة المعاصرون بهذا الطرح فطرحوا أسئلة من قبيل: هل يوجد شيء اسمه عقل فعلاً أم أن الفعل هو فعل للدماغ؟ كيف ينتج العالم العقلي من عالم المادة؟ماهي صلة الوصل؟ هل للعقل ماهية؟ هل هناك تفاعل بين العقل والدماغ أم أنهما مستقلان عن بعضهما؟ وهل يشكل الدماغ العقل فعلاً أم هو شيء آخر؟... إلخ من الأسئلة. وقد جاءت إجاباتهم مختلفة بطريقة التفسير ولكنها تتفق على نقطة جوهرية وهي أن الدماغ هو العضو الأبرز لنشوء العقل آخذين بنظر الاعتبار دور النمو التدريجي بيولوجياً وثقافياً لتشكيل العقل وأهمية الذاكرة كعضو أساسي في إحداث الوعي.

ولعل مجال علم النفس الذي ساهم بشكل ملحوظ في تحليلات العقل ولاسيما أبحاث فرويد كان الأقرب إلى الفلسفة، فكان المجال الأساسي المتاح للحصول على حيز تفسيري يلائم الطرح الفلسفي، السبب الذي جعل البعض يعطي للعقل تفسيراً نفسياً يبتعد معه عن الدماغ أو أن يجعل الدماغ ثانوياً كونه لا يمكنه تفسير المواقف والاعتقادات والتفكير الإنساني... إلخ وهذا سنشهده مع برغسون على وجه الخصوص ورسل وجيمس وديوي. . . ولم تعجب البعض الآخر هذه التفسيرات الثنائية فحاولوا توحيدها بثلاثية كما هو الحال مع كارل بوبر.

دعنا نبدأ الآن بتحديد الصور الفسلجية التي قدمها

الفلاسفة والتي قد تفيد العلم بحله لمشكلة العقل وتفسيره، وسنبدأ بأبعدها عن رأينا وننتهي بأقربها إلينا:

العقل مستقلاً عن الدماغ

إن إعلان الأبحاث العلمية حول الدماغ عن مسؤولية الدماغ في حصول الوعي والعقل كان قد أرضى ذوي التوجه المادي القائل بأن الوعي نشأ من المادة، لكن إلى جانب هؤلاء كان هنالك من الباحثين من ذوي النزعة المثالية من يؤمن بأن العقل والروح خالدان لا يفنيان بفناء الجسد، فحاولوا من أجل أن يثبتوا اهتمامهم بالعلم أن لا يهملوا الأبحاث العلمية حول الدماغ، بل توظيفها من أجل ترسيخ صورة للعقل غيبية من خلال جعله مستقلاً عن الجسم.

فقد افترضوا أن كشوفات الفسيولوجيا في القرن العشرين كانت قد طرحت فكرة أن هنالك "فرق جذري بين الحياة والعقل، فالحياة هي مسألة كيمياء وفيزياء أما العقل فهو يستعصي على الكيمياء والفيزياء... فالتجارب التي تنم عن الوعي تختلف في نوعها كل الاختلاف عما يحدث في آلية الأعصاب. ومع ذلك، فإن ما يحدث في آلية الأعصاب شرط ضروري للتجربة وإن كان هذا الشرط غير كافٍ"[102] . فرؤية

(102) اغروس ، العلم في منظوره الجديد، ص26-27.

شيء ما شجرة مثلاً يعني دخول أشعة الشمس المنعكسة من الشجرة في بؤبؤ العين وتمر من خلال العدسة التي تركز صورة مقلوبة ومصغرة للشجرة على شبكية العين فتحدث تغييرات فيزيائية وكيميائية ولكن هذا لا يعني الإبصار، لأنه لو كان الرائي فاقداً للوعي لأمكن تركيز نفس الصورة على شبكية عينه محدثة نفس التأثيرات الفيزيائية والكيميائية ولكن من دون أن يبصر شيئاً هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن مسألة الإبصار بالطريقة التي ذكرت يمكن أن تفسر بلغة الفيزياء والكيمياء، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: أين مكان اللون الأخضر من كل هذا؟ فالدماغ نفسه رمادي اللون أبيضه فكيف يستطيع أن يتلقى لوناً جديداً دون أن يفقد لونه السابق؟وكيف يمكن إبصار الضوء والدماغ معزول عن أي ضوء؟ ووفقاً لهذا يمكن استنتاج أن أحاسيسنا تتوقف على أعضاء الجسم ولكن لا يمكن حصرها في الخواص الفيزيائية والكيميائية للمادة(*)؛ فالدماغ وفقاً للنظرة العلمية الجديدة عضو ضروري للإحساس ولكنه ليس الإحساس بعينه فنحن إلى جانب حواسنا الخارجية نمتلك ملكات من الإحساس الداخلي كثيرة كقدرتنا على امتلاك ليس الإحساس بالبياض وحلاوة الطعم، بل على إدراك الفرق بينهما أيضاً. وأهم ملكة داخلية هي الذاكرة والخيال والعاطفة وجميع هذه يمكن أن

(*) راجع نفس المصدر، 27-29.

تنضوي تحت الدماغ. لكن الملكة التي تمكننا من فهم علل الأشياء والفرق والتمييز بينها هي العقل أو الفكر، وهذه الملكة مستقلة عن الجسم والدليل على ذلك ـ بنظر المثاليين المعاصرين ـ هو أن الاكتشافات الفسلجية للدماغ قد أشارت إلى أنه رغم معرفة العلماء لمناطق الدماغ ومسؤولياتها سواء عن النطق أو الحركة أو غيرها، فإن هذه الأبحاث لم تستطع أن "تحدد مكان العقل أو الإرادة في أي جزء من الدماغ. فالدماغ هو مقر الاحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة ولكنه فيما يبدو ليس مقر العقل أو الإرادة"[103]. ولم تثبت الأبحاث العصبية أي مكان في القشرة المخية يمكن تنبيهه فيجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئاً أو يصطنع القياس المنطقي أو يحل مسائل في الجبر أو أنه يريد تحريك جسمه. فالعقل البشري والإرادة البشرية ليس لهما أعضاء جسدية وفي النهاية فإن التفكير والإرادة هما من يتحكم بالأفعال إذا شاء الفرد، وليس هنالك تفسيراً علمياً لهذا، ليس لأن هذا التفسير لم يوجد بل لأن علوم الفيزياء والفسيولوجيا مازالت بدائية للغاية. فالأقرب إلى المنطق ـ بنظر أغروس ـ هو القول بأن العقل ربما "كان جوهراً متميزاً ومختلفاً عن الجسم"[104]. وهو تفسير يمكن أن يكون إيجابياً لو أنه افترض أن نوعية

---

(103) نفسه، ص 39.

(104) نفسه ، ص 43.

العقل المختلفة عن الدماغ هي بسبب التطور كما أشار بوبر، ولكن سلبية هذه الصورة تجسدت في المبالغة بالتوصيف الروحي للعقل. كل ذلك من أجل تعزيز الموقف الفلسفي المثالي الذي يؤمن بوجود خالق للقدرات العقلية. وما يمكن قوله إنه أمام العلم والتعقل يجب أن يتلاشى التطرف؛ ولكن نقول من جهة ثانية: إن هذا التفسير وإن أمدنا بصورة مثالية للعقل في وقت بدأت التوجهات تبتعد عن وصف الماهيات والجواهر فهو يمثل إحدى الصور الفسلجية في عصرنا.

العقل فسلجة لصورة نفسية سلوكية

تجسدت الصورة النفسية للعقل بشكل ملحوظ مع وليم جيمس، الذي ترك أثراً مهماً في علم النفس عندما عالج ظواهر الوعي نفسياً، مؤكداً أنها ظواهر تجري في سيل متصل وليس منفصلاً، مسخراً علم النفس لتشكيل مواقف فلسفية عديدة ما يهمنا منها الدماغ والعقل.

استبعد جيمس الثنائية بين العقل والمادة. اعتبر أن مفهوم العقل المتسامي مفهوم خرافي لكنه لم ينكر أن الوعي يمكن أن نفهمه ككائن موجود أوجده التفاعل مع الخبرة، والدليل أن المعرفة لا يمكن أن تكون إلا وظيفة له أي للعقل أو الوعي، وبذلك لابدّ من أن نقر بوجوده ولكن ليس كشيء أو كائن مجاوز للمادة بل كشيء أو كائن يتفاعل مع المادة. فما

هي إذن، الصورة الفسلجية لهذا العقل الذي يقصده جيمس؟ منذ البدء أكد جيمس سلوكه الفسيولوجي عندما أكد أن المخ هو عضو التفكير، وقدم هذا في صورة فسلجية تشريحية وظيفية لعمل المخ قائلاً: "إن للمخ باباً أمامياً وباباً خلفياً، والباب الأمامي عنده هو سيل دافق غير متمايز من الشعور وارد من الحواس، أما الباب الخلفي فهو الغرائز الفطرية والانفعالات بل وعادات الإنسان البرجوازي"[105]. في هذا النص نجد أن تشريح جيمس للمخ يقتصر على مفاهيم نفسية سلوكية... فهو عندما قدم توصيفاً لكيفية عمل المخ أتى بمفهوم (السيل الدافق) ومن ثم فإن مفاهيم الشعور والانفعالات تعلن عن المادة الخام لعمل المخ، حيث يلمح جيمس أن فينا قوى وجدانية تختلف عن القوى الجسمية ولكن "الدماغ هو آلة نقل تصل هذه القوى الوجدانية بالجسم"[106].

ولكن كيف تتم الصلة بين ما هو وجداني وما هو جسمي؟ كيف ينشأ العقل؟ في البدء كما هو ملاحظ مما سبق أن العقل عند جيمس ليس جوهراً كما كان يعتقد ديكارت،

---

(105) ويلز، بافلوف وفرويد، ص 217.

(106) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعارف بمصر 1962 ص 416.

ولا هو عالم مختلف عن الدماغ، بل هو منسوج معه ـ إذا صح القول ـ ولكن هذا النسيج لم يكن ثابتاً وإنما هو انسيابي قابل للنمو بسبب حيازته لقوانين تساعده على الفهم والتنظيم... إلخ والعقل بهذه القوانين يمكن ان يفسر لنا العلاقة بين ما هو جسمي وما هو عقلي، إذن، ماهي هذه القوانين؟

هذه القوانين هي قوانين الترابط والتداعي والتي يمكن أن نعدها أعضاء للعقل إذا ما طبقنا عليه التفسير الفسيولوجي. يقول جيمس: "العقل ذو صفة انسيابية متواصلة غير منقطعة فهو يربط بين ماهو سابق وبين ماهو لاحق بصيغة تواصلية انسيابية، هذه الانسيابية تعبّر عنها قوانين الترابط أو التداعي، وهذان القانونان لم يكونا في دماغنا كوننا مخلوقات عاقلة بل هما مناسبان لتركيبنا الدماغي"[107]. هذان القانونان هما نفسيان لكنهما ليسا مجاوزين للدماغ كونهما لا يعملان من دون وجود فعاليات للدماغ (أعضاء) كالذاكرة والخيال والإدراك. فالذاكرة "هي أبسط النتائج لتوضيح أن عقلنا آلة ترابطية تعمل بالتداعي"[108]، وذلك لأننا كما قلنا: إن ما

---

(107) جيمس، وليم، أحاديث للمعلمين والمتعلمين في علم النفس، ت: محمد علي العريان، عالم الكتب، القاهرة، 1961، ص 130.
(108) نفسه، أحاديث، ص 165.

ينساب في دماغنا هو الترابط والتداعي، فالوعي في الترابط أو المماسة يعلن عن نفسه من خلال اعتماده على أن الأشياء موضوع التفكير تقاس على الخبرة السابقة كما في سرد حروف الهجاء إذا قلت (أ، ب) تتابعت البقية. ولكنه ـ أي الوعي ـ في التداعي أو المشابهة يعلن عن نفسه من خلال برهنته على تشابه الأشياء السابقة مع اللاحقة رغم عدم اندماجها في خبرة واحدة، وهنا يلعب الخيال دوراً إلى جانب الذاكرة(*)، ودور الخيال يصبح أكثر وضوحاً عندما تكون صور الخبرة الماضية غير مؤرخة أي ليست من الذاكرة فهذه الصور ستكون من الخيال أو الإدراك.

لم يفت جيمس أن يشير إلى العضو الذي تكوّن لاحقاً وهو اللغة في صنع العقل. "فالمادة اللفظية أو الكلامية هي الأداة التي يفكر بها العقل"(109) . والكلمات والألفاظ هي ما يتجسد في نهاية المطاف للإعلان عن العقل. وبهذا الشكل يسهل الأمر على إدراكنا للأشياء والتفكير بها، والإدراك والتفكير هما الطريقتان اللتان تعلنان عن وجود عقل يفكر ويدرك ويعي، فنحن لدينا قدرات مكتسبة تساعدنا على

(*) راجع نفسه، ص127.

(109) نفسه، ص 207.

التصرف حين إدراك انطباع ما بطريقة محددة وذلك من خلال الأفكار. ولعل طريقة أخذ الشيء هذا ودخوله وتلقيه هي التي تكون عملية إدراك عقلي ذاتية فهي تحدث وفق عوامل نفسية شعورية انفعالية ذاتية، وكل انطباع" يفد من الخارج سواء كان جملة نسمعها أم شيئاً نبصره... فإنه بمجرد أن يدخل وعينا لا يلبث أن يأخذ اتجاهاً معيناً محدثاً ارتباطاً مع المواد الأخرى الموجودة من قبل ومنتجاً ما يسمى ردة فعلنا. فإذا سمعتني مثلاً أقول (أ ب ت)... سترد سراً أو علانية (ث ج ح)، فالانطباع ينبّه ويوقظ رفاقه القدامى"[110] ليعلن عن حالة عقلية تجاه شيء ما وبهذا الشكل يكون العقل قد تكون بفعل الخاصية التطورية لدماغ الإنسان وجسده وبفعل الترابط الوجداني الداخلي والجسدي، ومن ثم بفعل وجود أداة لصياغة ظواهر العقل وهي اللغة التي نمت بشكل تطوري أيضاً، ولا شك أن للبعد النفسي الدور الأساس لإنتاج أعمال ووظائف وسلوكيات أمكن للبعض إطلاق اسم العقل عليها.

ووافق ديوي على هذا التفسير عندما أعلن صراحة عن شكه "بوجود شيء فعلي يمكن أن نسميه فكراً ـ عقلاً ـ

---

(110) نفسه، ص 207.

باعتبار هذا الشيء كائناً نفسياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة"[111].

والقول بأن العقل هو كائن نفسي راجع إلى كيفية نشوئه الداخلية بفعل التواصل المتبادل بين البيئة والكائن الحي، وهو تواصل قد أتى من سلسلة تطور بيولوجي بين المادة المعقدة والبيئة وصولاً إلى الوعي، "يستحيل الفصل في حياة الإنسان بين المرحلة الأولى التي كان إدراكه فيها للمسائل المختلفة إدراكاً فطرياً يستهدف جانب المنفعة والمتعة وبين المرحلة اللاحقة وهي مرحلة البحث العلمي كما نعرفه اليوم"[112]. وخلافاً لبوبر الذي يؤمن بالطفرة يؤمن ديوي مثل جيمس بمبدأ الاتصال الذي يعني عدم إمكانية استحداث قوة أو ملكة جديدة فجأة، بل هو يعزو ظهور العقل إلى طريقة التفاعل مع البيئة عبر مسيرة الوعي البيولوجية التي أظهرت أهمية البيئة في مساعدة الكائن الحي على خلق أعضائه منذ توسله بالبيئة في ابتكار أعضاء مباشرة تساعد على التنفس وإدخال الطعام وإخراجه إلى الأعضاء غير المباشرة المتعلقة بالدورة الدموية وتنشيط الاعصاب. وهكذا "يتسع

---

(111) ديوي، جون، المنطق، نظرية البحث، ت: د.زكي نجيب محمود، دار المعارف، بمصر، 1960، ص 86.

(112) نفسه، ص 38 .

نطاق البيئة كلما حدث في تكوين الكائن العضوي تمايز بين أعضائه لأن العضو الجديد له طريقة جديدة يتفاعل بها مع بيئته"[113]. وهذا يعني وجود تكامل بين العقل والبيئة (الخبرة) من ناحية، ومن ناحية أخرى، يعني "رفض القول بأن هنالك إمكانية لوجود العقل خارج نطاق الخبرة، فالعقل هو ضمن دائرة الخبرة وهو عنصر مساعد على تحصيل الخبرة وتدعيمها"[114]. فالعقل ليس هيئة مفارقة تشرف من فوق على الشؤون الفكرية والسلوكية بل العقل ملتحم بالواقع وبهذا الشكل تحسم ماهية العقل فهو "ليس قوة سابقة تؤدي وظيفة الترياق ولكنه إنجاز شاق للعادة يحتاج إلى عناية مستمرة به"[115]. وهذه العناية تكون من خلال التعاون التبادلي له مع الخبرة، وإن الإنجاز الشاق يكرس مقولة إن العقل كائن نفسي سلوكي كونه لا يمثل أداة للمعرفة بقدر ما يمثل ما يؤديه من الاعمال والنشاط والتعامل. فهو لا يمكن أن يكون استعداداً معداً كما رأى التجريبيون بل هو استعداد ناتج؛ وهنا يحاول ديوي أن يبيّن طبيعة العقل التي تتكامل من خلال المعرفة والعمل بحيث لا يكون فيها العقل السلطة التي

---

(113) نفسه ، ص 91.

(114) راجع جديدي، محمد، فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجاً، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، بيروت، 2004 ص70.

(115) نفسه، ص 73.

تحكم السلوك بل في نسيجه معه كون هذه الطريقة سترينا بدلاً من المبادىء القبلية، سترينا النتائج الثمرات لسلوكنا وعملنا فالعقل هو نتيجة وليس ملكة مسبقة.

إن الظروف البيئية وضغط النمو شكلت تلك السلوكيات الداخلية التي استطاعت أن تفهم وتعي المحيط. وإنّ تقصي هذه السلوكيات بيولوجياً يظهر لنا الصورة الفسلجية بشكل أوضح مع ديوي... وأهم تلك السلوكيات هي الذاكرة وهي الجزء الأساسي في الوعي. فالتذكر "شرط له أثره في تكوين هدف يضعه الإنسان نصب عينيه أو في تصور نتيجة يعمل على تحقيقها، لأن تكوين الهدف أو تصور النتيجة إنما يتطلب إعداد خطط ثم اختيار الوسائل المؤدية وترتيبها، وهذا الاختيار والترتيب يؤديان إلى إخراج تلك الخطط إلى حيز الوجود الفعلي"[116].

إنّ التفاعل مع البيئة يزود الكائن العضوي بقوى جديدة تقتضي من البيئة ـ بدورها ـ شروطاً جديدة. وإيجاد هذه القوى وشروطها البيئية ليست واعية، أو كما يصفها ديوي ليست متعمدة، وبعبارة أخرى، إن حل مشكلات معينة سيعمل على خلق مشكلات أخرى وهكذا، بدون تعمد مما يعلن عن حالة ليس فيها استقرار نهائي حتى نصل إلى مرحلة

(116) ديوي، المنطق، ص 104-105.

العلم، حيث تتحول المشكلات معه لتصبح إثارتها متعمدة.
من هنا، يصبح مفهوما السلوك والبحث عند ديوي أساسيين لتفسير عمل العقل. فوسائل السلوك العضوي هي" الأعضاء والعادات المستخدمة في السلوك، أما الأعضاء والتصورات العقلية فهي المستخدمة في البحث المتعمد"[117] . وفي هذه المرحلة الأخيرة مرحلة البحث المتعمد يتعرض الإنسان إلى مشكلات ووسائل للحلول لا تشبه مشكلاته وحلوله التي تعرض لها في حياته العضوية في مستواها البيولوجي، بل يبدو وكأنه قد انفصل تكوينه العضوي ومشكلاته ليبدأ تكوينه الثقافي الذي سيساهم في تشكيل نفسي جديد يتلائم مع البيئة الثقافية، بحيث تتحور الأجهزة العصبية مما يؤدي إلى تحويل" السلوك العضوي إلى سلوك متميز بخصائص عقلية... إن نشأة اللغة بأوسع معانيها عن مناشط بيولوجية سابقة وفي صحبتها عوامل ثقافية أوسع منها. إنها هي مفتاح هذا التحول في طبيعة الإنسان"[118] . وقد وصف ديوي تحول السلوك العضوي إلى سلوك عقلي بالسلوك المنطقي كونه نتيجة لحقيقة قائمة وهي أن الأفراد يعيشون في بيئة ثقافية. فالمسألة تشبه بقاء القضايا بعد زوال حدودها وما

---

(117) نفسه، ص 111.

(118) نفسه، ص 116-117.

يربط بعضها ببعض من علاقة زمنية... وقد حاول ديوي أن يدلل على أهمية العقل وتفاعله مع البيئة ولاسيما مع العلم بأن استبدله بمفهوم الذكاء وهو مفهوم نفسي؛ والعقل الذي يريد استبداله هو العقل الإغريقي والمدرسي الذي يبحث عن الثابت الكامن في الطبيعة، بينما اتسم العقل الجديد بالتواصلية والتفاعل مع البيئة والنمو وهو الذكاء الذي يكمن في الطبيعة، فالعقل =الذكاء هو" نوع من التوجيه البصير الذي يحيط بالشروط علماً ويلاحظ علاقات التتابع ويضع في ضوء هذه المعرفة الخطط ويقوم بتنفيذها"[119] فالعقل إذن، هو ناتج.

وبالنتيجة يمكن اختصار الصورة الفسلجية للعقل ككائن فمن ناحية، إن كلمة كائن التي وصف بها ديوي العقل في كتابه: المنطق نظرية البحث تعطي دلالات على عضوية العقل وإن كان قد حدد طبيعة هذا الكائن بالنفسي، ومن ناحية أخرى، فإن هذا العقل يمتلك وظيفة تكمن "في قدرته على إنجاز المهمة التنظيمية التي تربط الخبرات فيما بينها فتجعل منها وحدة ذات معنى بالنسبة لمختلف الأحداث التي يمر بها الإنسان، بحيث تيسر له الانتفاع من هذه الخبرات. وما العقل إلّا القدرة على استخدام خبرة سابقة في إدراك ما لمادة

(119) جديدي، فلسفة الخبرة، ص 81.

الخبرة الجديدة من معنى"[120]. فملامح ما يدعى بالعقل قد تشكلت من خلال التحول البيولوجي المستمر مشكلاً البعد النفسي وإشكالياته التي خلقت له وظيفة طرحت تفكيراً عقلياً خلق العلم.

لم يكن البعد النفسي بعيداً عن برتراند رسل عندما جعل العقل ناتجاً من نوع من الظروف النفسية، فهو قد استند مثل وليم جيمس إلى التداعي والخبرة السابقة في تفسير حوادث العقل، وهو كلام لم يعجب بوبر فلا يمكن للخبرة السابقة وحدها أن تفسر العقل كون العقل انبثاقاً وعالماً لوحده رغم تفاعله مع بقية العوالم.

وكان رسل قد عاصر أبحاث العلم التي أعلنت اعتماد العقل على الدماغ، ولكنه أضفى على هذا الطرح بعداً فلسفياً التمسه من موقفه الفلسفي المتأخر[*] (الواحدية المحايدة)

---

(120) نفسه، ص74.

(*) لرسل موقف في كتاباته الأولى لاسيما كتابه مشاكل الفلسفة 1912 ومجموعة محاضرات 1914-1915 والطبعة الاولى من كتابه معرفتنا بالعالم الخارجي 1914. موقفه في هذه المرحلة كان يتجسد في ثنائية تفصل بين العقل والمادة.فموضوعات العالم هي موجودة باستقلال عن الفكر ولكنه عدل عن هذا الموقف في الطبعة الثانية من عنوان كتابه الاخير 1926 وكتابه تحليل العقل 1921 وتحليل المادة 1927 وموجز في الفلسفة 1927 حيث تبنى الواحدية المحايدة التي من اهم اصحابها ارنست ماخ ووليم جيمس والواقعيين الأميركيين الجدد.

تجاه العالم، الموقف الذي يرفض الثنائية التي تفصل بين العقل والمادة من جهة، ويرفض من جهة أخرى، الأطروحة التي تمجد المادة وتعلن ظهور الوعي منها بفعل التطور. فهو قد أعلن عن تفسير يهدف بالدرجة الأولى إلى اعتماد الإثنين على بعضهما البعض، فمثلما أن العقل يعتمد على الدماغ فإن الدماغ يعتمد على العقل أيضاً وهذا لسببين:

الأول، إنه موقف يوفر راحة لغوية "فيريحنا أن نرى العقل معتمداً على المخ حيث يزيد علمنا بالمخ على علمنا بالعقل، ويريحنا أن نرى المخ معتمداً على العقل حيث يزيد علمنا بالعقل على علمنا بالمخ. وفي كل من الحالتين تظل الحقائق الجوهرية هي هي ويظل الاختلاف اختلافاً في درجة علمنا"[121]. وقد انتقد بوبر هكذا مواقف كونها تتجاهل تشخيص الانبثاق الثالث العالم الموضوعي.

والثاني، أن لا خلاف حقاً في المادة الخام التي يتكون منها العقل والمخ. وتوضيح هذا الأمر يمكننا التماسه من خلال توصيف رسل للعقل والمادة بأنهما وهماً، فهما غير موجودين وما هو موجود فعلاً هو مجموعة أحداث أو سلاسل مجموعات أحداث. فالأحداث التي تتجمع لتكون عقلاً هي بعينها الأحداث التي تتجمع لتكون مخه وأن

---

(121) العقل والمادة ، ص 205.

الاختلاف بينهما ليس اختلافاً في الكيف بل اختلاف في التصنيف إن كان خارجياً أو داخلياً كما في السياق البصري فهو في الطبيعة خارج المخ مادي يختلف عن السياق البصري لعلم النفس. ويأتي رسل بمثال توضيحي لذلك فيقول: "افرض مثلاً أن الإحساس البصري يتعلق ببرقية تدل أنك قد أفلست فينشأ في عقلك عدد من الأحداث تتفق مع قوانين السببية السيكولوجية، وقد ينقضي وقت طويل قبل حدوث نتيجة مادية صرف كتقطيع شعرك... وإن صحت هذه النظرية فلا مهرب من بعض الاتصال بين العقل والمخ فلا بد أن يحدث في المخ بعض التعديل المادي بما يقابل الذاكرة ولا بد أن تتصل الحياة العقلية بالخصائص المادية للأنسجة المخية"[122]. فلا خلاف إذن، بين العقل والمادة والخلاف الأساسي يتجسد بطريقة تجميعهما للأحداث كون أن كليهما يمثل مجموعة أحداث.

وحتى الأحداث، رأى رسل بأن الأحداث التي تكون المخ الحي هي نفسها التي تكون العقل المناظر له وكل الدواعي التي قد تنشأ لديك، ولكن ما يشكل الاختلاف بين أحداث العقل وأحداث المادة هي القوانين التي ترتبط بكليهما، فالمادة مجموعة أحداث ترتبط بقوانين "العلية

(122) نفسه، ص 204.

الطبيعية بينما العقل مجموعة أحداث ترتبط بقوانين علية هي القوانين العلية النفسية. وإذن، فلا يصح وصف حادثة ما بأنها عقلية أو بأنها مادية لصفة في كيانها، بل توصف بهذا أو بذاك حسب سياقها العلي فإنه من الممكن كل الإمكان للحادثة أن تتسق في كلا السياقين العليين، السياق الذي تختص به الطبيعة والسياق الذي تختص به السيكولوجية. وفي هذه الحالة تكون الحادثة عقلية ومادية في وقت معاً، ولا صعوبة بعد اليوم في هذا أكثر من تصور إنسان ما خبازاً مرة وأباً مرة أخرى"[123].

وليس أكثر مما سبق دليل على نفي الثنائية، ولكن تنبغي الإشارة إلى أن موقف رسل هذا لا يعني أن العقل هو نفسه المادة، بل يعني "أن العقل يتركب من النسيج نفسه الذي تتركب منه قطعة المادة ولكن بتنظيم مختلف... ويفسر رسل هذه النظرية بمقارنتها بإدارة البريد التي تصنف الناس إما على أساس الحروف الأبجدية للأسماء، أو على أساس الموقع الجغرافي، فنفس الأسماء، إذن، قد ترد مرتين[124]. فالثنائية قد انتفت بمعناها الديكارتي وإن كان من ثنائية فهي ثنائية

(123) نفسه، ص 209.

(124) مهران، محمد، فلسفة برتراند رسل، دار المعارف، مصر، ط2 ، 1979.

علية ولاسيما بعد أن عرفنا أن المادة الأولى التي يتركب منها العالم الذهني والعالم الفيزيقي هي (الأحداث)، لأن الحادثة في رأي رسل المتأخر(*) هي "مركب يتألف من الكيفيات المتصاحبة، وهو يستخدم لفظ التصاحب ليكون مطبقاً على العالم الفيزيقي والعالم الذهني على حد سواء... ويخلص رسل إلى تعريف الحادثة على أنها حزمة كاملة من الكيفيات المتصاحبة"[125]. وقد وجد هذا التفاعل أو النسيج بين العقل والمادة مكانه عند المشتغلين بحقل العلم ولاسيما المجال الذي فيه استقلال وفيه تفاعل وهو مجال الموجات والجسيمات حيث مضى زمان استقلالهما عن بعضهما بعضاً وحان وقت تكاملهما اليوم وقد يعلنان عن نتيجة تفسيرية للعقل والمادة. يقول جينز: "يبدو أن الموجات والجسيمات هي الخلف المباشر للعقل والمادة السابقين، فالموجات تحل

(*) لقد طور رسل تحليله حول لفظ الحادثة في كتابه المعرفة الإنسانية 1948 وجعلها مركبة بعد أن كان تحليله لها عام1927 على تمثل الجزيئات التي يتألف منها العالم أو المكونات القصوى للعالم وهي شيء يشغل قدراً صغيراً متناهياً من المكان-الزمان وهي ليست صماء وهي لا تقبل التداخل فيما بينها. وهذا اثار السؤال إن كانت هذه الاحداث بسيطة لاتخضع للتحليل. ولكن رسل لا ينفي تحليلها إلى أبعد حد وهو يتحدث عنها بوصفها جزيئات حين يريد أن يؤكد أنها قد تكون مركبة... للمزيد راجع محمد مهران فلسفة برتراندرسل.

(125) راجع المصدر نفسه، ص65.

محل العقل والجسيمات محل المادة. طرفا الثنائية الجديدة هذان ليسا متضادين أو متعارضين بل هما متكاملان. . . فالموجات تتحكم في الجسيمات أو بالمصطلحات القديمة؛ الذهني يتحكم في المادي"[126].

ما سبق قدم صورة فسلجية للعقل تجعله في نسيج مع المادة ومتلاحم معها، فهنالك مادة واحدة في العالم يتركب منها كل شيء وهي الخبرة الخالصة التي تتفرع إلى ذات وموضوع فالذات طرف أساسي في هذه المعادلة؛ وفي هكذا وضع تتلاشى الثنائية ويبقى التفاعل الذي يعلن عن ماهية العقل وعن تشييد أعضائه لاحقاً.

العقل طبيعة بيولوجية

هذا إسم لنظرية طرحها جون سيرل (biological naturalism) لتقديم بذرة حل لمشكلة العقل والجسد، حيث يقرّ بأن كل الحالات الواعية تتسبب بفعل عمليات عصبية من المستوى الأدنى في الدماغ ويأتي بمثال عن العطش ويعممه على كل الحالات الواعية فيقول: إن العطش الذي يعني نقصان الماء في الجهاز "سوف يسبب اختلالاً في التوازن

(126) Jeans, James, *Physics and philosophy,* Cambridge; at the university press, 1944 p. 204.

الملحي للجهاز، لأن نسبة الأملاح في الماء تجعل نسبة الملح متزايدة. هذا التزايد يقدم مادة تسمى انغيوتنسين (angiotensin) تنتقل إلى داخل الهيبوتالاماس وتؤثر في سرعة الشرارات العصابية. ان ما نعرفه الآن هو أن سرعة الشرارات العصابية المختلفة تسبب في الحيوان الشعور بالعطش... كل حالات الوعي يسببها سلوك العصبات وتتحقق في الجهاز الدماغي الذي هو بذاته يتشكل من عصبات؛ ما ينطبق على العطش ينطبق على جميع الحياة الواعية من دون استثناء»[127].

وهكذا نجد أنفسنا أمام بذرة حل، حيث إن الحالات الواعية تسببها عمليات نيروبيولوجية من مستوى أدنى للدماغ كما وأن هذه الحالات الواعية تتحقق في الجهاز الدماغي كصفات مما يجعلها توجد في مستوى أعلى من مستويات العصبات ونقاط اشتباك العصبات وفي هذا المستوى يتحقق الوعي. يبدو وكأن الوعي هنا، أو المستوى الأعلى بمثابة انبثاق من المستوى الأدنى أو العصبات. فالوعي هنا، بمثابة الكل الذي ينبثق من مجموعة أجزائه، والعقل من أجل أن يوجد يستلزم دعامة مادية ولكنه ـ وهو مشروط بهذه الدعامة ـ ينشىء نسقاً من الظواهر ذات خاصية منبثقة لمجموعة عصبية

(127) سيرل، العقل، ص93.

كما في انبثاق "الماء وخصائصه الفيزيائية، السيولة من تركيبته التي هي الهيدروجين والأوكسجين، لكن لا أحد من هذه المكونات يملك خصائص الماء. من هذا المنظور يمكن أن ينبثق من التفاعلات بين الأعصاب مسار ذهني"[128].

وهنا يجب أن لاتردّ العلوم إلى بعضها جزافاً، فلا يمكن رد علم النفس إلى البيولوجيا مثلما لايمكن اختزال البيولوجيا إلى الكيمياء أو الكيمياء إلى الفيزياء، فلكل ظواهره وقوانينه وعليه يجب أن نفهم ظواهر وقوانين العقل بمعزل عن الدماغ. . . إذن، في الشبكة العصبية هنالك نشاط عقلي عميق لا يوجد على شكل معلومات أو رموز ـ يتابع سيرل ـ ان كان هذا يمثل العقل يجب أن يندرج تحت شرح جدي لمسميات أو صفات الوعي وهي عديدة منها: النوعية والذاتية والوحدة والقصدية والمزاج، إلخ...

ومن أجل تمحيص جيّد لهذا الموضوع يطرح سيرل مشروعه للبحث المكون من ثلاث خطوات: "أولاً، اكتشف المرادفات العصابية للوعي التي تسمى (ncc). ثانياً، اختبر لكي ترى ما إذا كان الترابط بينها سببياً. . . ثالثاً، شكل نظرية".

---

(128) دورتي، جان فرانسوا، فلسفات عصرنا، ت: ابراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص347.

ويمكن تقسيم البحث لتحقيق غايتنا في التحليل إلى فئتين أطلق عليهما على التوالي: اسم اتجاه حجرات البناء (building- block approach)، واتجاه الحقل الموحد (unified field approach). ووفقاً لاتجاه حجرات البناء نعتبر حقل الوعي برمته حقلاً مكونا تقريباً من وحدات وعي مستقلة أسميها حجرات بناء، تجربة اللون الأحمر، وتذوق البيرة، وصوت النوتة (سي) الوسطي كلها أمثلة من أنواع حجرات البناء التي أقصدها ـ يقول سيرل ـ وفكرة اتجاه حجرة البناء هي كما يلي: إذا كان بإمكاننا اكتشاف كيف يمكن للدماغ أن يسبب حتى حجرة بناء واحدة ـ مثلاً، إدراك اللون الأحمر ـ عندئذ يمكننا استعمال هذه المعرفة لحل مشكلة الوعي ككل... أما اتجاه الحقل الموحد فهو الذي يبدأ بالتركيز جدياً على صفة وحدة الذاتية النوعية فالهدف هنا ليس أشياء كتجربة إدراك اللون أو غيره بل حقل الوعي النوعي برمته، الذاتية الموحدة. والسؤال سيكون هنا ليس كيف ينتج الدماغ هذه الحجارة البنائية في حقل الوعي، بل كيف ينتج حقل الوعي برمته في المكان الأول؟ ماهو الفرق بين الدماغ الواعي والدماغ غير الواعي؟

ويرى سيرل أن الأبحاث في هذا الاتجاه قد تصادف فرصاً للنجاح أكبر مما يصادفه مجال حجرة البناء وإذا كان معظم الباحثين يتبنون اتجاه حجرة البناء كونه أسهل من أن

يحاول المرء دراسة كمية هائلة من الشرارات العصبية المتزامنة التي تنتج وعياً في أجزاء كبيرة من الدماغ كجهاز المهاد اللحائي يقول: "إن هذه الأبحاث محاطة بالشك وإن السنوات المقبلة سترى أبحاثاً أكثر في الوعي"[129].

هذه النتيجة كانت الشيء البسيط الذي توصل إليه سيرل لكنه يعود ويقر بصعوبة المشكلة، فالوعي ظاهرة مذهلة وسرية؛ وهو يرى أن الميزة العامة للعلاقة بين الوعي والدماغ ومنها الحل العام لمشكلة العقل والجسد ليس من الصعب صياغتها: "ينتج الوعي من عمليات على المستوى الجسمي في الدماغ ويتحقق في الدماغ كصفة هيكلية أو ذات مستوى أعلى. ولكن تعقيد الجهاز ذاته والطبيعة الدقيقة لعمليات الدماغ المرتبطة بها تبقى غير قابلة للتحليل بهذا الوصف"[130]. لكن للعقل جوهراً هو الوعي، أي معنى وجودنا بذاته، كون منوعات حياتنا هي منوعات وعينا. وهو مثل الثنائيين يقول: ان الوعي ليس سوى عملية دماغية لكن كلمة وعي تختلف بينهما، فهي مع الثنائيين شيء يوجد بالإضافة بينما معه تختزل إلى عمليات نيروبولوجية، فهو جزء من العالم وليس شيئاً مضافاً والوعي بهذه الحالة ينبثق من العمليات العصبية العميقة.

---

(129) سيرل، العقل، ص122-126.

(130) نفسه، ص127-128.

وقد علق هنتر ميد على النظريات الانبثاقية، حيث يرى أن فكرة انبثاق الذهن من الشبكة العصبية هو أفضل الحلول الموجودة حالياً، ولكنه يعيب عليها أن مؤيديها لم يظهروا السبب الذي أدّى إلى المستوى الجديد للتنظيم العصبي وكان يقصد بذلك ظهور الذهن، فالكون هو نتيجة التنظيم لاسبباً له، وهذه النظرية ـ بنظر ميد ـ تنبئنا بالطريقة التي ظهر بها الذهن ولكنها لاتقدم سبب حدوث ذلك ولا سبب العلاقة بين الذهن والواقع(*) ولكن من الجدير ذكره في هذا المكان هو أن الانبثاقية التي قال بها سيرل قدمت حلاً استوفى الشروط الذاتية والنفسية لتحديد الوعي، لكن القصور ظل في الإفصاح عن تقديم تحليل دقيق للتفاعل بين العقل والمادة وعن وصف الصورة الانبثاقية بالطريقة الجديدة التي طرحها بوبر، وربما لم يكن ميد قد تعرف بعد إلى طرح بوبر في الانبثاق عن طريق التطور.

العقل شعور

العقل عند برغسون على وجه العموم مقسوم إلى قسمين حسب مجال معرفة كل قسم منهما:

(*) للمزيد راجع ميد، هنتر، الفلسفة انواعها ومشكلاتها، ت: فؤاد زكريا، مؤسسة فرنكلين، القاهرة، نيويورك، 1969، ص166-168.

الأول، العقل العلمي وهو الذي يبحث في معرفة العالم الخارجي مستعيناً بالتحليل والتصنيف، وما يفكر به العقل في هذا العالم هو الأشياء السكونية التي يكون زمانها متحيزاً في المكان ومما يقاس ويضبط.

والثاني، هو العقل الذاتي الذي يبحث في معرفة حالاتنا الداخلية المتغيرة باستمرار كون الزمان هنا يمثل ديمومة، وإننا نعرف هذا العالم الداخلي من خلال قدرة عقلية هي الحدس(*).

ولم يركز برغسون على العقل العلمي واعتبره غير حقيقي، وافترض أن ما هو حقيقي هو عقلنا الداخلي. لذلك فإننا إذا أردنا أن نقع على صورة فسلجية للعقل عند برغسون سنجدها تشرح العقل من جانبه الوجداني الذي لاشك في أن تكون مادته قد جمعت بالمجهود العقلي أولاً.

إن الصورة التشريحية التي قدمها برغسون للعقل قد وعت ما قدمته العلوم العصبية والنفسية حول الدماغ. ونظراً لتركيز برغسون ـ كما قلنا ـ على الشعور فإنه قد حاول بتشريحه للعقل هذا أن يدلنا على مواقع تأليف الشعور حيث يقول:

(*) إن مفهوم الحدس كان قد اكتسب بحثاً تشريحياً من قبل برغسون كفكرة فاعلة في فلسفته وهي الفكرة التي دلتنا على خريطة مفاهيمية مترتبة عليها، كالوجدان والوثبة الحيوية... إلخ. الأفكار التي كان برغسون عالماً تشريحياً بها جسد وظيفة الفلسفة كتشريح للأفكار...

"في أسفل التلفيف الجبهي اليساري الثالث تقيم ذكريات الحركات اللفظية وفي منطقة تشمل التلفيفين الصدغيين اليساريين، الأول والثاني تقيم ذكريات أصوات الكلمات، وفي القسم الخلفي من التلفيف الجداري اليساري الثاني تقيم الصور البصرية للكلمات والحروف... إلخ"[131] هذه الصورة على الرغم من إعلانها الاتفاق مع علوم الدماغ إلا أنها في أحيان كثيرة لاتكتفي بما قدمته هذه العلوم بل تحاول أن تضيف من الفلسفة الموقف الأساس، حيث رأى برغسون أن ما قررته هذه العلوم من أن ثمة علاقة بين الشعور والدماغ إنما تمثلها حياة النفس وتقع دراستها على عاتق الفلسفة[132]. فالشعور حقاً معلق بالدماغ كما أشار العلم بذلك، ولكن هذا لا يعني أبداً أن الدماغ يرسم كل تفاصيل الشعور ولا أن الشعور وظيفة الدماغ؛ وإن ما أعلنه العلم عن علاقة بينهما فإن ماهية هذه العلاقة لم يبحثها العلم وهذا من مهمة الفلسفة وعلم النفس.

يرى برغسون أن الدماغ من التعقيد بحيث إننا لا نستطيع أن نلم بكل الحركات والأحداث في الدماغ، فإن النفس

---

(131) برغسون، هنري، الطاقة الروحية، ت: سامي الدروبي، الهيئة المصرية العامة، 1971، ص 30.

(132) نفسه، ص 34.

الشاعرة لا تضيء إلا جزءاً يسيراً من الحركات الداخلية الدماغية وأدواتنا لرؤية الدماغ سوف لن تظهر سوى شرارات صغيرة ترفرف فوق تجمعات معينه للذرات. وحقيقة الأمر أن هنالك تجمعات من هذه الذرات وحركات دماغية بأكملها تفوتنا، ولكن لو كنا نمتلك أدوات تكبير أقوى مما لدينا بملايين المرات فإننا سنشهد "حركات الجواهر الفردة والذرات والالكترونات التي تتألف منها القشرة الدماغية. وكنا نملك من جهة أخرى، لائحة التقابل بين ماهو دماغي وما هو عقلي أعني ـ يقول برغسون ـ معجماً يسمح بأن نترجم كل حركة من هذه الحركات بلغة الفكر والعاطفة لعلمنا كما تعلم هذه النفس المزعومة كل ما تفكر فيه وكل ما تشعر به وكل ما تريده وكل ما تحسب أنها تفعله بملء حريتها مع أنها لا تفعله في حقيقة الأمر إلا آلياً"[133]... ولكننا لانمتلك هذه الأدوات.

ولكن مازالت الفلسفة موجودة فإننا نستطيع وصف الظاهرات الداخلية لاسيما ونحن نمتلك المقدرة العقلية (الحدس). فالفيلسوف وحده هو القادر على توجيهنا إلى الظاهرات التي يعرفها علم النفس وبإمكان الفيلسوف أن يشهد "الصيرورة التدريجية إلى مادة، ورصد الخطوات التي

---

(133) نفسه، ص 31.

يبرز فيها الشعور إلى الخارج مما يمكنه ـ على الأقل ـ أن يصل إلى حدس غامض لما عسى أن يكون عليه نفاذ الروح في المادة وعلاقة النفس بالجسم"[134]. وهنا يأتي دور علم النفس في تقويم منهج الملاحظة الداخلية التي تصحح ما يكون في التجربة الداخلية من خطأ وتكمل النقص. وهكذا يكون برغسون قد وجد نفسه قد اقترب من حل المسألة من خلال التردد بين مركزين للملاحظة: الداخل والخارج.

ولعل برغسون بكلامه هذا كان قد أثار مسألة أنّ الذات تتكون من الديمومة الشاعرة باستمرار، كونه قد أوجد ماهية جديدة للعقل تمزج بين الروح والشعور والذاكرة... والروح هنا هي التي تنمو، فهي ليست الروح الغيبية المتعارف عليها، بل هي الشعور الذي ينشأ بتطور الذات من خلال الذاكرة... لاسيما وأن الشعور هو الذاكرة يقول برغسون:

"متى قلت روحاً فقد قلت شعوراً... إن الشعور يعني الذاكرة قبل كل شيء"[135] .حيث وظيفة الشعور الأولى هي ذكر مالم يعد موجوداً واستباق مالم يوجد بعد، فنحن ديمومة تنقسم إلى قسمين: ماضينا المباشر ومستقبلنا الوشيك. ونحن متكئون على الماضي ومنعطفون على المستقبل، وعليه يكون

---

(134) نفسه، ص34.

(135) نفسه، ص5.

ما يخص الكائن الشاعر هو الاتكاء والانعطاف. وطالما نحن نملك هذه الخاصية فإن وظائف كثيرة فينا تبدأ بخلق أعضاء ملائمة لهذه الوظائف ويحصل هذا بالتكامل وتعقد الكائن الحي، حيث يتوزع العمل وتصبح للوظائف المختلفة أعضاء مختلفة. فالجهاز العصبي مكون من الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب وغيرها. كل واحد منها يمكن أن يتحرك بتأثير سبب خارجي مما يجعل الجسم يحقق فوراً مجموعة من الحركات المتوافقة رداً على التنبيه الوارد له، وهو متكامل بهذا الشكل مع الإنسان كون دماغ الإنسان بهذا الشكل بإمكانه استلام المنبهات من كل نوع سواء من النخاع أو غيره، حيث يحتوي النخاع على عدد كبير من الأجوبة الجاهزة يرد بها على السؤال الذي تطرحه الظروف. وهنا يكون الدماغ عضو اختيار كونه سيختار أحد الأجوبة.

هذه الشبكة المعقدة من الأعصاب تختلف مع الكائنات الأدنى حيث يكون الانفصال بين وظائف الدماغ ووظائف النخاع أقل وضوحاً، وتبدأ وظيفة الاختيار بالامتداد إلى النخاع الذي يكون عدداً من الاجهزة أقل ويعبئها بدقة أقل، وهذا يعني أن جميع الكائنات الحية تمتلك شعوراً لكنه يختلف باختلاف التعقيد(*). فالعقل إذن، بتعقيده وارتقائه كان

(*) نفسه، ص 7-11.

قد أوجد أعضاء ووظائف جعلت من الإنسان شعوراً وديمومة أو فكراً واتصالاً؛ وهنا يركز برغسون على الكلمات فالفكر يعبّر عنه بالكلمات لأنه مختلط ولكي يتضح "ويتميز لابدّ له من أن يتناثر في كلمات"[136].

والفكر ليس حالات بل هو اتجاهات وجوهر الفكر هو التغير الدائم المتصل، واتجاهه يكون إلى الداخل كون محاولاته تكمن في التعبير عن نفسه بتغيرات ذات اتجاه خارجي، أي بأفعال وحركات قادرة على أن تمثل في المكان حركاته ذاهباً آيباً فتعبر عنها مجازاً إن صح التعبير.

والإنسان ينمي نفسه بنفسه بوجود الشعور والذاكرة والفكر فهو من يخلق نفسه، إنه خلق يتجدد في كل لحظة هذا بالإضافة إلى الإدراك. فجسمنا المندرج في العالم المادي عليه أن يستجيب بحركات مناسبة لما يتلقاه من تنبيهات، وهذه الحركات طبعاً يؤديها الدماغ والمجموعة الشوكية مما يساعد على الإدراك. لكن يجب أن نشير إلى أن الإدراك ليس كل شيء لأنه يوجد شيء آخر أساسي لصنع الإدراك وهو الإرادة.

وتكمن وظيفة الإرادة في "أن الجسم يقوم بالحركات الإرادية بفضل بعض الأجهزة المعبأة في المجموعة العصبية

---

(136) نفسه، ص 20.

والتي تنتظر الإشارة حتى تنطلق"[137]. وبالتأكيد إن الدماغ هو مصدر الإشارة والانطلاق، وهذه الإشارات تطلعنا على الحل الذي يقدمه برغسون حول العلاقة بين العقل والدماغ.

حلل برغسون مسألة ظهور الوعي ويبدو ـ مما سبق ـ أنه يعتقد بأن المادة هي الأولى وأن الشعور قد نفذ إليها بالتدريج وكأنما أراد الشعور أن يشق لنفسه ممراً باطنياً فقام بمحاولات ذات اليمين وذات الشمال فاندفع قليلاً أو كثيراً إلى الأمام وتحطم على الصخر في معظم الأحيان. لكنه استطاع ـ في اتجاه واحد على الأقل ـ أن ينفذ وأن يخرج إلى النور وهذا الاتجاه هو الذي يؤدي إلى الإنسان"[138] .

ونفاذ الشعور الخالق في المادة كان قد حرر بالبراعة والابتكار شيئاً ظل حبيساً في الحيوان لينطلق نهائياً في الإنسان. وقد وصف برغسون هذه العلاقة بدقة قائلاً: إنها معقدة ومرهفة ويمكن صياغتها بقانون بسيط هو أن "الدماغ هو عضو التعبير عن الفكر بإشارات. فوظيفته هي أن يومىء إلى حياة الفكر بإشارات ويومىء بإشارات أيضاً، إلى الظروف الخارجية التي ينبغي للفكر أن يتلائم معها. فالنشاط الدماغي هو النشاط النفسي".

---

(137) نفسه، ص 41.

(138) نفسه، ص 20.

الدماغ ليس عضو تفكير ولا عاطفة ولا شعور بالمعنى الأصلي للكلمة، وإنما هو يجعل الشعور والتفكير والعاطفة تظل ممتدة على الحياة الواقعية. يقول: "فقولوا إن شئتم: إن الدماغ عضو الانتباه إلى الحياة"[139]. فالدماغ يختزن عادات حركية لا ذكريات. وجميع وظائف الدماغ إضافة إلى الذاكرة مستقلة عن الدماغ. وهذا إن عنى شيئاً فإنه يعني إعلاء للجانب النفسي على الجانب الدماغي، وهذا ليس غريباً على برغسون، الذي حصر الحقيقة في العالم الذاتي الوجداني المتحرك والمتغير باستمرار، الذي سمته الديمومة والخلق.

فسلجة العقل العلمي

هناك من الفلاسفة من نظر إلى العقل من زاوية كونه عقلاً واعياً آنياً من دون أن يسألوا عن أصله، فما يهم هو توصيف العقل الراهن وتقديم صورته الفسلجية من خلال مرحلته الواعية المكتملة كما هو الحال مع لالاند وباشلار. إن نظرة لالاند إلى العقل الذي وصل إلى هذه النقطة من التطور الواعي جعله يقدم له توصيفاً فسيولوجياً يشير إلى أعضاء ووظائف. فالعقل يمثل وحدة وهذا أشار إليه برنشفيك أيضاً، وهي ليست وحدة جوهر بل وحدة فعل، فالعقل

---

(139) نفسه، ص 43-45.

بالنسبة إليهما ـ أي لالاند وبرنشفيك ـ أداة تمثيل وتوحيد فهو "لا يفسر الأشياء إلا إذا أرجعها إلى ضرب من الوحدة أو الهوية أو المساواة"[140].

فقد أشار لالاند إلى أن للعقل وظيفة تأليفية تنزع نحو البحث عن المتشابهات وتكشف عن التوافق والتوحد والتجانس بعيداً عن الاختلاف والتنوع واللاتجانس. ووفقاً لهذه الصورة فإن العقل الحاضر أمام لالاند جعله يكون صورة فسلجية تصف محتويات هذا العقل التي امتلكها خلال تاريخه. ومن هنا قدم صورته الفسلجية بتقسيمه للعقل إلى قسمين: "العقل المكوِّن (بكسر الواو) أو الفاعل والعقل المكوَّن (بفتح الواو) أو السائد.

الأول، يقصد به النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر حين البحث والدراسة والذي يصوغ المفاهيم ويقرر المبادىء وبعبارة أخرى، إنه الملكة التي يستطيع بها كل إنسان أن يستخرج من إدراك العلاقات بين الأشياء مبادىء كلية وضرورية وهي واحدة عند جميع الناس.

أما الثاني، فهو مجموع المبادىء والقواعد التي نعتمدها في استدلالاتنا، وهي على الرغم من كونها تميل إلى الوحدة

---

(140) ابراهيم، زكريا ، دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة، ط1، 1968.

فإنها تختلف من عصر إلى آخر كما تختلف من فرد إلى آخر"[141].

إن توصيف لالاند للعقل بصورته الراهنة ربما يحتوي على إشارة ضمنية تعلن عن أن العقل قد حاز ممتلكاته الواعية بالتدريج، وهو ما بدا غامضاً مع غاستون باشلار. فهو عندما طرح فسلجته للعقل فإنه لم يقصد أيّ عقل، بل أنه يقصد العقل العلمي الذي يجده أمامه الآن مليئاً بالأحداث والثورات العلمية. ولم يهتم بعنوان سلالي له ولا بتبرير سوى العلم نفسه. فالرياضيات لا تتأسس على العقل، بل نظرية العقل هي التي تتاسس على الرياضيات الأولية. والعقل هو ما وصل إليه العلم حتى اليوم وما سيصل إليه في المستقبل.

وعليه، فإن السؤال عن ماهية العقل لم يحن وقته ـ بنظر باشلار ـ إلا عندما وصل العقل إلى مرحلة علمية أهلته للقول إنه "قبل أن أتعلم العد ما كنت أعلم قطّ ما هو العقل"[142]. فبعد العدّ عرفنا ماهية العقل. فإذا قلنا عقلاً، فإننا نقصد العقل الذي اكتسب المعارف كون العقل يخضع إلى شروط المعرفة. وإن العقل بسلوكه هذا إنما يخلق بنية تتناسب مع بنية المعرفة.

---

(141) الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي ، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1985.

(142) كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم، ص 301.

فالعقل يطيع العلم في تطوره وهذا لا يعني تطور العقل بل يعني تحديد خصائصه وتوصيفه حيث يقول باشلار: "ليس ثمة عقل ثابت يحكم جميع أنماط معرفتنا، فالعقل نتيجة من نتائج العلم وهو إنشاء لاحق غايته الإفصاح عن المناهج العلمية"(143) . وهكذا، إذا تحدثنا عن العقل والروح فإننا سنجد باشلار يقر بأن العلم قد حل بهما وأصبح تجسيداً لهما. فإذا أردنا الآن إعطاء صورة فسلجية للعقل فسنجده عبارة عن أحداث علمية جسيمة أو ثورات أو وقائع تعمل على إجبار التنظيم العقلي للتجربة على إعادة تنظيم نفسه دائماً، مما يجعل العقل غير ثابت ومتغير ومتحول بتحول وتغير العلم. فالعلم يتطور بأحداثه الجسيمة ويصبح سلماً من التجارب الجديدة. والعقل وفقاً لهذا، لاينظم المعارف وفقاً لملكات كما ادعى كانط، بل أنه يتغير بتأثير هذه الأحداث الجسام وهو الذي يصنع الأحداث الجسام بأعضائه من الحلم والخيال والافتراض... إلخ

الذات صورة العقل الفسلجية

إن نظرية التكيف البيولوجي مع البيئة كانت قد وفرت

(143) باشلار، غاستون، العقلانية العلمية، ت:بسام الهاشم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص9.

جواباً عن تطور الدماغ من خلال الارتقاء التدريجي للوعي. ولما لم يكن هناك ثمة بنى فطرية فإن فكرة التكيف كانت جواباً لتكيف آخر وهو التكيف الفكري مع البيئة. ولكن عملية الارتقاء المعرفي هذه تحصل داخل الفرد، فالعقل عبارة عن بنى يسبقها تشييد وكل مكونات العقل تتولد من بنى سابقة، وإنها جميعاً ترجع إلى المشكلة البيولوجية[144]. فالفكر إذن، يكون من خلال التكيف مع بيئتنا حيث يتم" تنظيم العالم الخارجي من خلال عمليتي التمثل والمواءمة مما يجعل المواقف الاجتماعية والخبرة مبنية بطريقة تمكن الإنسان من السيطرة على الأشياء والتفاعل مع الآخرين"[145].

قد نلمس البعد التطوري والنمو البيولوجي للعقل بشكله الانبثاقي من خلال تفحص الصورة الفسيولوجية التي قدمها كارل بوبر للعقل.

يرى بوبر أن الأشياء والموجودات سواء كانت المادية أو غير المادية تحدث في الطبيعة بفعل التطور الذي لا يستمر في التدرج بصورة واحدة، بل تعتريه طفرات أو انبثاقات أي جدة ليست تراتبية بل جدة ليست مقصودة، لأنها غير متوقعة

---

(144) راجع واردزورث، بي.جي، نظرية بياجيه في الارتقاء المعرفي، ت: فاضل محسن الازيرجاوي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990، ص 111.

(145) بياجيه، ص 109.

ولم تكن موجودة سابقاً كأول خلية على الأرض. ما يقصده بوبر لتفسير نظريته هو التطور المنبثق وقد رسم صور هذه الانبثاقات وفق عوالم ثلاثة[146]:

العالم الأول، هو العالم الفيزيائي والمادي، عالم الحالات والعمليات الفيزيائية، وهو العالم الذي انبثق منذ الانفجار الكبير وأخذ بالتطور والانبثاقات. فمن عنصري الهيدروجين والهليوم[*] انبثقت كل العناصر الأخرى والتي استطاعت أن تنتج أحداثاً يمكن تفسيرها وفق قوانين فيزيائية وكيميائية يمكن حسابها والتنبؤ بها بدقة. والدماغ (المخ) ينتمي إلى هذا العالم حيث أوجده الانتخاب الطبيعي والصدفة.

العالم الثاني، العالم السيكولوجي (العقل، الذهن) عالم الخبرات الواعية وغير الواعية، عالم العمليات الذهنية والخبرات الذاتية والحالات النفسية كالانفعالات والشعور والذاكرة والحلم... وغيرها. ويبدو هذا العالم بصفاته التي عددناها للتو مختلفاً ومستقلاً عن العالم الأول، لكن ما يجب ذكره هو أن هذا العالم قد انبثق عن العالم الأول بفعل

---

(146) للمزيد راجع بوبر، كارل، بحثاً عن عالم أفضل، ت: أحمد مستجير، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة ، 1989، ص31.

(*) يعتقد بأن الهيدروجين والهليوم هما أول عنصرين وجدا بعد الانفجار الكبير.

تفاعلات وتركيبات "وخبرات بدائية نمت بالتدريج تحت سلسلة من الضغوط البيئية التي تلازمها سلسلة من الانتخابات الطبيعية لدى الكائن للتكيف مع هذه المتغيرات والمحافظة على البقاء وقد انبثق عن هذه الخبرات نوع من الوعي للذات يمكن أن نجده لدى الإنسان"[147]. كل هذا تم مع انتفاء وجود أي احتمال أولي مسبق وفق قوانين العالم الأول للتنبؤ بولادة هذا الحدث الجديد (الحياة) الذي لا يمكن تفسيره وفق هذه القوانين، حيث لا يمكن (رد القوانين البيولوجية إلى قوانين الفيزياء والكيمياء)[148] وهذا العالم ـ الثاني ـ هومقصدنا لتفحص ووصف فسيولوجيا بوبر للعقل.

العالم الثالث، عالم المعرفة الموضوعية أي الأعمال العلمية والأدبية والفنية، عالم المنتوجات الإنسانية الذي انبثق من العالم الثاني بفعل منتوجات الإنسان وأهمها اللغة ولا سيما اللغة النقدية والجدلية فضلاً عن ابتكاره للمشكلات لما لها من تأثير مهم في عملية النمو والتطور.

وفقاً لهذه النظرية يبدو أن الدماغ قد تكون بفعل تفاعلات المادة في العالم الأول مما ولد طفرة في المادة كونت المادة

(147) الهيتي، فوزي حامد، نظرية العوالم الثلاثة عند كارل بوبر، رسالة ماجستير، بغداد، 1994، ص99.

(148) نفسه، ص37 .

العضوية التي، من خلال المشكلات التي واجهتها وحلولها المقدمة لها أو من خلال المحاولة والخطأ، نمت نحو تعقيد أكثر تطوراً من الوعي وهو ما يمثل العالم الثاني؛ ولم يمثل انبثاق الوعي النهاية بل هو نقطة البداية نحو مشكلات جديدة أوصلته بالمحاولة والخطأ إلى ابتكارات وإبداعات واكتشافات أي إنتاجات للعقل الذي يؤلف العالم الثالث.

هذا التصوير للعوالم اختزل لنا المسيرة التطورية للدماغ إلى حين انبثاق الوعي. ومن الجدير بالإشارة أنه ليس هنالك انفصال في هذه العوالم بل هنالك تفاعل بينها هو الذي أنتج العقل. فعبر تاريخ طويل استطاع الدماغ في العالم الأول أن ينشىء ملامح للوعي بحل المشكلات من خلال التجربة والخطأ والتي كانت الخطوة الأولى لإنشاء العالم الثاني العالم السيكولوجي عالم الوعي الذي تشكلت أهم وظائفه القائمة ليس في حل المشكلات التي تشترك الكائنات جميعها فيها، بل في توقع النجاح أو الفشل في حل المشكلات، وهي سمة تفصح عن تطور آليات عديدة في الوعي اهمها الذاكرة. ويؤكد بوبر أن الذاكرة لا تحوي حوادث الوعي فقط بل هنالك مجال واسع للاوعي يكمن في الذاكرة لأسباب بيولوجية" . لهذا السبب كان لا مناص من ظهور مجال من اللاشعور يرتبط جذرياً بجهاز الذاكرة ويحمل قبل أي شيء آخر خريطة ما لاشعورية للوسط البيئي لموطننا البيولوجي

المحلي"[149]. ولما كان التطور سمة الحياة والكائنات الحية، ولما كان التكيف الفكري سمة أخرى إلى جانب التكيف البيولوجي، فإن الوعي أخذ بالنمو التدريجي إلى حين ظهور العالم الثالث، عالم اكتشاف اللغة البشرية وأهم منتجات الإنسان على الإطلاق؛ لأن اللغة ما إن ابتكرت "حتى مارست ضغطاً انتخابياً انبثق من تحته المخ البشري والوعي بالذات. فظهور اللغة هو الذي خلق الضغط الانتخابي الذي أدى إلى ظهور اللحاء المخي ومعه وعي الإنسان بذاته"[150]. فاللغة هي نقطة التحول من الحيوان إلى الإنسان ولاسيما بعد انبثاق فاعليتي النقد والجدل عند الإنسان. . . ذلك أن اللغة بفعاليتيها هي الانبثاق الجديد الذي جعل الذهن ينمو ويتطور باتجاه جديد اتجاه المعرفة الموضوعية.

بهذا الشكل يكون الانتخاب الطبيعي، الذي أوجد المخ بالصدفة من المادة المعقدة، قد تجاوز ذاته عند ظهور الوعي فأصبح واعياً كما يحدث للانتخاب الواعي للنظريات بدلاً من الانتخاب الطبيعي. وهكذا فإن المخ الذي ينتمي إلى العالم الأول الفيزيقي "والعقل الذي ينتمي إلى العالم الثاني ينشآن

---

(149) نحو عالم أفضل، ص 31.

(150) مصطفى، عادل، كارل بوبر، دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان، ص 107.

في تفاعل مع أول منتوج للعقل وهو اللغة التي تنتمي إلى العالم الثالث، لأنه باختيار الكلام وبمنح الاهتمام للكلام فإن الإنسان قد اختار إحداث وإنشاء مخه وعقله. واللغة ما إن تمارس وتخلق الضغط الانتخابي حتى ينبثق عنه المخ الإنساني ووعي الإنسان"[151]. وفي هذه المرحلة يظهر النقد كسلوك من سلوكيات الوعي كما في محاولات نقد الإنسان للنظريات التي يضعها كونها لم تعد" متوشجة في كيانه العضوي أو في نظامه الجيني بل أنها صيغت في كتب أو صحف ويمكن مناقشتها مناقشة نقدية خالية من العنف"[152]. وهو هنا يلمح إلى تجاوز مرحلة الصراع والبقاء للأقوى العنيفة عند داروين.

وفقاً لما سبق يكون بوبر قد تقدم خطوة مهمة نحو حل مشكلة العلاقة بين النفس والجسد، وإن صرح بصعوبة الموقف تجاهها.

اهتم بوبر بمفهوم النفس (الذات) كثيراً، والدليل أنه قد كرس كتابه \النفس ودماغها *(The self and its brain)* لهذا الموضوع. فالنفس بهذا العنوان تبدو وكأنما هي الجسد

---

(151) مذبوح، لخضر، فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص214.

(152) بوبر، كارل، أسطورة الاطار، ت: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، الكويت ، 2003، ص 95.

موحداً مع العقل، وبوبر لايقصد بالنفس المعنى الميتافيزيقي بقدر ما يعني به العقل أو الذات التي نمّت نفسها من خلال الوعي بالداخل وبالخارج والذاكرة. فالوعي "بالأنا يتطلب بالضرورة أن أعرف أن لديّ تاريخ حياة يكون قابلاً ـ على الأقل ـ لتأويل ملامحه العامة"[153]. فالنفس تجمع كل نشاطات المخ الواعية واللاواعية ومن هنا، فإننا لا نستطيع القول إنها وجدت عند الميلاد أو أنها ألقيت في الجسد كما ظن أفلاطون؛ ولكنها "انبثاق فردي يتم بدأب منذ مرحلة الرضاعة ويعتمد على النمو والتطور والتعلم.

النفس ليست جوهراً وليست شبحاً في آلة، وإنما هي الوعي بالذات والتفرد، ذلك الوعي الإنساني الانبثاقي الذي يعد النتاج الأخير لعملية تطور طويلة جرت تحت ضغوط الانتخاب الطبيعي. والذاكرة مطلب أساسي لعملية الوعي بالذات والشعور بالتفرد الذي يدوم طوال الحياة"[154]. بهذا المعنى تكون النفس ناتجة عن الميول والاستعدادات الفطرية (أي ما يورث من الجينات) بالإضافة إلى ما يكتسب من الخبرة الاجتماعية والعلمية والفيزيقية... إلخ فنحن لانولد

---

(153) بوبر، كارل، الحياة بأسرها حلول ومشاكل، ت: بهاء درويش، شركة الجلال للطباعة، 1994 ، ص 117.

(154) مصطفى، عادل، كارل بوبر، ص117.

ذواتاً بل أننا نتعلم أننا ذوات، والتعلم هذا نكتسبه من خلال العوالم الثلاثة.

فإذا كان العقل قد انبثق من الدماغ فإنه لايعني أنهما يؤلفان وحدة في الهوية، بل ـ كما عرفنا ـ أن العقل هو ليس الدماغ ولكن الصلة بينهما وثيقة لإنتاج الذات الواعية العاقلة. لكن مع ذات واعية كهذه يكون الدماغ مملوكاً لها وليس العكس، فهي المبرمج النشط للدماغ كونها ليست ذاتاً خالصة "بل هي ثرية إلى حد مذهل، إنها أشبه بالقائد تلاحظ وتتخذ أفعالاً في الوقت نفسه"[155]. وهذا الكلام يشير إلى أن الذات هي العقل. ففسيولوجيا العقل تظهر أن العقل يمثل الذات بنموها، منذ النمو من الاستجابة ومعرفة اللغة كون الذات هي تجسيد للعقل والجسم. فالطفل مثلاً هو جسم قبل أن يكون شخصاً لأنه لم يتعلم الكلام بعد مما يعني أنه لم يمتلك الوعي بعد وما يمتلكه هو الطرق الفطرية الوراثية للفعل ورد الفعل، والأهم من هذا يمتلك الأطفال أيضاً، قدرة على تطوير استجاباتهم أو ردود أفعال جديدة لتطوير فعاليات جديدة "وأغلب هذه الميول الفطرية يطورها وعي الشخص نفسه من خلال الاشتراك ومخالطة الآخرين. فالطفل الذي ينمو بعيداً عن المجتمع البشري وبانعزال تام يفشل في

(155) نفسه، مصطفى، ص 119.

تحقيق الوعي الكامل بنفسه"[156]. وهذا إن عنى شيئاً فإنه يعني بأن الوعي يتطور ولاسيما بتوافر شرط وجود الآخرين، المجتمع الذي من خلاله سيعرف الإنسان انه شخص أو ذات مستقلة عن الآخرين، وتشخصه يكون من خلال تمركزه وشعوره بالتمييز عن الآخرين، فتأتي كلمة أنا لتعبر عن وحدة الإنسان الجسدية أو الوعي بالذات خلال الزمان والمكان. وللذاكرة دور أساسي في تحقيق هذه الوحدة من خلال لعبها على الوعي واللاوعي، حيث تحضر لنا الماضي في نقطة تمركزنا لتمدنا بما نحتاجه من مخزون وتسعفنا للتنبؤ بالمستقبل.

فالذات إذن، هي العقل الذي ينبثق بعد الولادة ولاسيما بعد اكتساب اللغة وانبثاق فعاليتيها النقد والجدل حيث تثرى وتغتني من خلال مواجهة المشكلات التي تكسبها الجديد وتجعلها تستمر بالنمو نحو الإثراء. فالعقل=الذات هو الوحدة الجسدية التي تتفاعل مع دماغها من خلال فعالياتها فهي توافق وترفض وتتذكر الماضي وتخطط للمستقبل وتتألم وتفرح... إلخ.

يبدو أن ثراء الذات لا يقتصر على التشخص من خلال الآخرين بل أن المعرفة الفطرية والتي يقصد بها بوبر المعرفة

---

(156) الهيتي، فوزي حامد، ص 101.

اللاواعية المندمجة مع الجينات والتي تعتبر أساس كل معرفة هي الأساس في تشكيل الذات المكتسبة، ففسيولوجيا العقل عند بوبر ليست "صفحة بيضاء... بل أن هنالك سلسلة عظيمة من الخبرات الماضية المخزونة في ذاكرة الكائن وتعد معرفة فطرية أو موروثة"[(157)].

وتفسير هذا بيولوجياً من خلال تشخيص وظائف العقل أو الذات،كوظيفته في مواجهة المشكلات التي يتعرض لها الكائن من خلال اقتراح الحلول واختيار أفضلها، أما وظيفته في ضوء مالديه من معلومات أو خبرات سواء كانت فطرية أم مكتسبة فتقوم على تنسيق وتنظيم عمل أعضائه الداخلية بالإضافة إلى قيامه ـ أي العقل ـ "بتعديل وتطوير هذه البرامج على نحو دائم لتواكب المتغيرات البيئية الجديدة وتحقق هدف الكائن العضوي وهو المحافظة على بقائه"[(158)]. وهكذا فإن الصورة الفسلجية للعقل عند بوبر قد بانت ملامحها إذْ يبدو مما سبق أنه لا يريد بالعقل الدماغ لأنه لم يثبت العلماء مكاناً في الدماغ يشير إلى العقل ولاسيما فعالياته من الاعتقاد أو القرار أو الإرادة... إلخ وما حدّد هو مناطق الكلام والحساب... إلخ.

---

(157) الهيتي، ص 106.

(158) الهيتي، ص 107.

فالدماغ برأي بوبر بمثابة كومبيوتر تأتيه البرامج التي يعمل في ضوئها من العقل مما يجعله غير قادر على مواجهة المشكلات لولا العقل وخزينه المعلوماتي، وبهذه المناسبة يحدث نمو العقل من خلال الجديد المكتسب في حل المشكلات، وهكذا يكون العقل بمثابة عالم مستقل عن الدماغ فهو وإن كان يستعين بآليات الدماغ إلا أنه هو الذي يقرر ويفهم ويتصرف كما لو كانت له طاقة خاصة به مما لا يصح معه القول: إن العقل يعني الدماغ.

ويبدو أن العقل فسلجياً هو إنشاء حديث بعد المادة وأنه ظهر إلى الوجود منذ ابتكار اللغة الجدلية. ولكي يوضح بوبر العلاقة بين هذا العقل وبين الجسم اقترح التفاعل بين العوالم الثلاثة. ومن أجل أن يستفيض بالمشكلة على الرغم من خطورتها طرحها وفقاً للسؤال التالي: هل إن حوادث التفكير الخاصة بالعالم الثاني ترتبط بحوادث المخ في العالم الأول أم لا؟ وإذا كان ذلك كذلك فكيف؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يطرح عدة حلول لكنه يفضل الحل المتمثل بالتفاعل السيكوفيزيائي المتبادل يقول:

"يتأثر العالم الثاني والعالم الأول بالتبادل ويؤثر كل منهما في الآخر. بمعنى أن تنشأ حوادث في المخ عند سماع محاضرة ما أو قراءة كتاب معين تؤثر في العالم الثاني لأفكار

القارىء أو السامع، والعكس عندما يتتبع عالم رياضي برهاناً ما، عندئذ يؤثر عالمه في مخه ومن ثم في العالم الأول"[159]. ويقر بوبر مرة أخرى، بأنه رغم أنه لا يعرف كيف يؤثر كل من المخ والوعي في بعضهما بالتبادل إلا أن تقديم المشكلة والحل بطريقة جديدة ربما يساعد على الفهم أكثر. فالتأكيد على وجود ثلاثة عوالم مستقلة تتأثر بالتبادل قد يساهم في الحل كون العالم الأول الفيزيقي عالماً مفتوحاً في مقابل العالم النفسي الثاني... من الناحية الجينية فإن العالم البشري الثاني هو أيضاً نتاج للعالم الثالث مثلما ان العالم الثالث نتاج للعالم الثاني، أو بتعبير آخر: نحن نتاج نتاجاتنا أو نتاج حضاراتنا التي نساهم فيها جميعاً"[160]. بمعنى أن وظيفة العقل (العالم الثاني) البيولوجية تقوم على التحكم المرن بالجسم (العالم الأول)، والمرونة هنا تعطي طابع الانفتاح الذي ينمو ويتطور بالخبرات والمحاولة والخطأ. ومن هنا ينشأ التفاعل بين العالم الأول والعالم. ومن ثم فإن العالم الثاني هو توسط للربط بين العالم الأول والعالم الثالث كون العالم الثالث قد انبثق عن العالم الثاني لأن اللغة التي انبثقت في العالم الثاني ومن ثم انبثقت وظيفتاها الجدل

(159) بوبر، كارل، الحياة بأسرها حلول ومشاكل، ص 112.

(160) بوبر، الحياة ، ص 120.

والنقد كانت الخطوة نحو انبثاق العالم الثالث من خلال تجسد مسار جديد للإنسان يعلن عن تطور جديد مختلف عما عُرف في العالمين الأول والثاني. فبدل" أن يتجه الإنسان إلى تطوير قدراته الذاتية لمواجهة مشكلاته من خلال تحوير وتعديل أعضائه الداخلية أو انبثاق أعضاء جديدة من داخله، اتجه إلى ابتداع أعضاء جديدة... تقع خارج جسمه، ثم حاول أن يطور ويعدل ويحور هذه الأعضاء. ويسمي بوبر هذه العملية بالتطور الخارج جسماني أو الخارج شخصي"[161]. وهكذا تلاشت مع العالم الثالث فكرة تطوير القدرات الذاتية وظهرت بدلاً عنها قدرات إبداعية خارج ذاتية الإنسان. فالإنسان ابتدع المحركات كالسيارة والطائرة بدلاً من أن يطور قدرته على الجري السريع وبدل أن يطور قدرته البصرية لرؤية الأشياء البعيدة والصغيرة ابتدع التلسكوب والميكروسكوب وهكذا، فالعالم الثالث إذن، هو يسمو بانتاجاتنا، وبدورنا نحن نخضع لما انتجناه، كون هذا العالم قد أضاف إلى العالم الثاني مرونة أكبر في تحقيق فعالياته البيولوجية. وهكذا تظهر ملامح التواصل بين العالم الأول والعالم الثالث والذي لا يتم من دون توسط العالم الثاني ومن هذه الشبكة المتبادلة ينشأ ما يسمى العقل = الذات السايكوفيزيائية وهي صورة

---

(161) الهيتي، فوزي، ص173.

فسلجية ممتعة ومريحة كونها قد أجابت عن المشكلة بتوصيف مرضٍ.

لم يشر بوبر ـ في ظل ما سبق ـ إلى فسلجة العقل فقط، بل قدم تشريحاً للأفكار أيضاً، أفكاره، ومنحوتاته، ومفاهيمه... فنحته لمفهوم العوالم الثلاثة مثلاً لم يكن إلا تشريحاً له، التشريح الذي يسافر بنا إلى زوايا وتفرعات لهذا المفهوم الذي يعلن عن مفاهيم جديدة كان قد شرحها بوبر، كالمعرفة الموضوعية، والنقد، والتكذيب، والاستنباط، والمشكلات، والحلول... إلخ من الأفكار التي ميزت طروحاته وفلسفته. . . وهذا إن عنى شيئاً فإنه يعني أن وظيفتي الفلسفة (الفسلجة والتشريح) حافلتان بالنشاط مع العلم المعاصر.

النتيجة

إن مفهوم العقل قد أخذ حيزاً واسعاً من التفكير الفلسفي وهذا ليس اعتباطاً، ذلك أن الفلسفة منذ أن أدركت أهمية دور الإنسان في المعرفة بدأت تتحرى عن أداة الوصول إلى هذه المعرفة، وبالتالي معرفة طبيعة هذه الأداة وعملها ووظيفتها، فكان أن شهدنا مسيرة رائعة من ما يشابه العلماء في دقة الوصف والتحليل فبدا الموضوع وكأن هذه الأداة (العقل) عضو، كان للفلاسفة السبق في تأشيرها ومعرفتها

فسلجياً وبقى هذا الاهتمام حتى بعد أن أدلى العلم بدلوه في هذا المضمار، فلم يتنازل الفلاسفة عن هذا العضو المهم (العقل) وجاءت تشريحاتهم له معلنة العلاج من الفلسفة.

المحتويات